

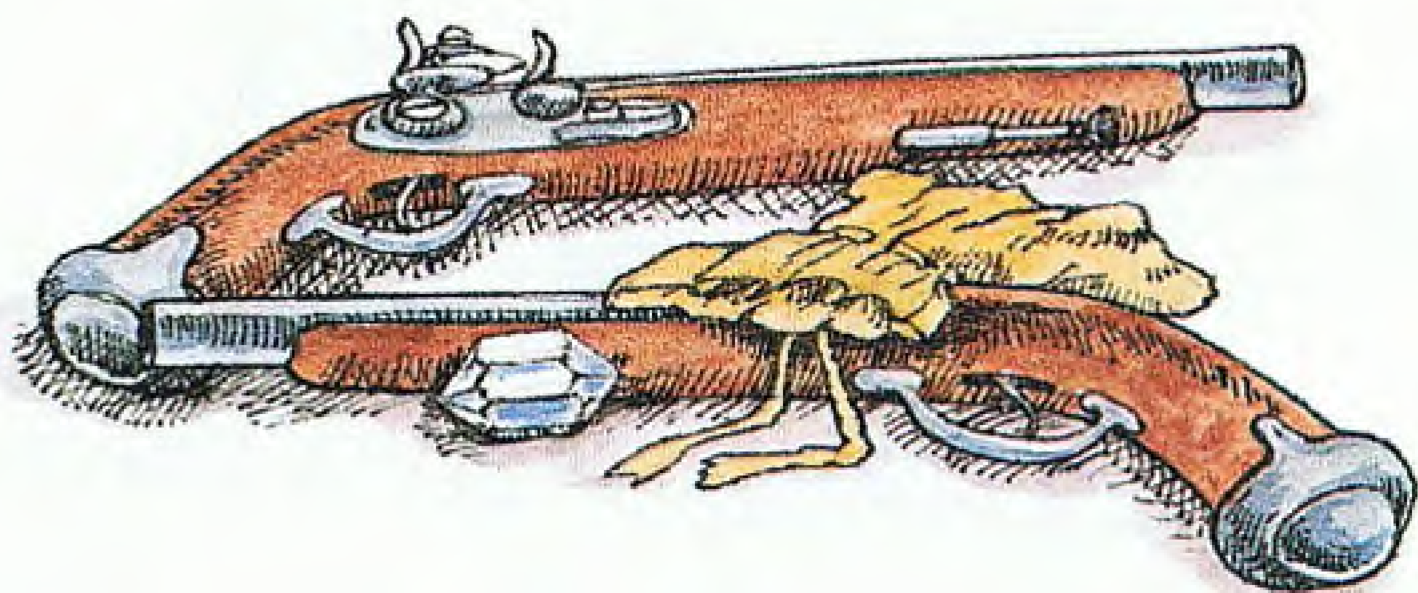
كتب الفراشة - القِصص العالميّة

مونْفليت



كتب الفراشة - القِصص العالميّة

مُونْفليت



أعادَ حكَايتها : الدّكتورُ ألبير مُطْلَق
عَن قصّة جُون مِيد فوكْنر



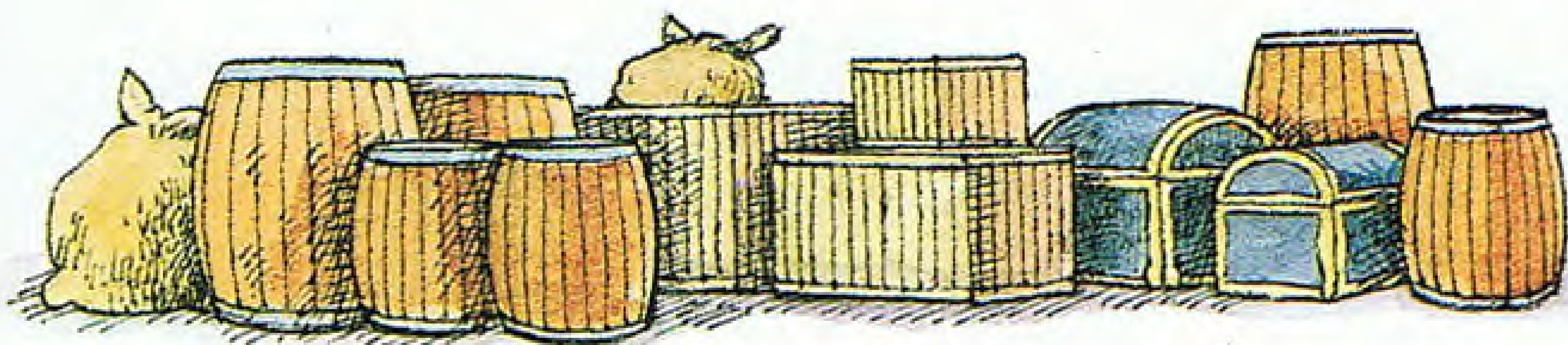
مَكتبَة لبْنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٤

رقم الكتاب 01 C 196809

طبع في لبنان



مقدمة

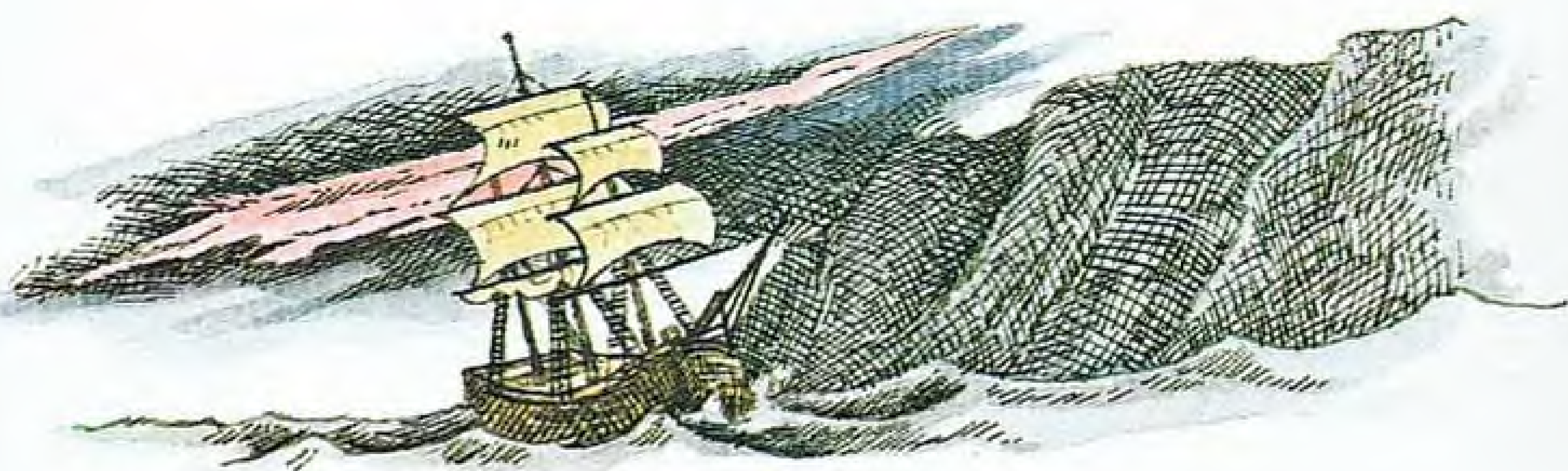
كانَتْ عَمَليّاتُ التَّهْريبِ نَشِطَةً في إنْكِلْترا في القَرْنِ الثّامِنَ عشَرَ. وكانَ بَعْضُ سُكّانِ المُدُنِ والبَلَداتِ السّاحِلِيَّةِ يَسْتَقْدِمونَ، لَيْلًا، مِنْ أُوروبّا، القَوارِبَ المُحَمَّلَةَ بالتَّبْغِ والمَشْروباتِ وغَيْرِها مِنَ البَضائِعِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَفْعِ الرُّسومِ والضَّرائِبِ. وهٰذِهِ العَمَليّاتُ مُرْبِحَةٌ، لٰكِنَّها تَنْطَوي على مَخاطِرَ إذْ إنّ رِجالَ الجَمارِكِ والضَّرائِبِ كانوا لِلْمُهَرِّبينَ بِالمِرْصادِ لِيُوقِعوا بِمَنْ يُقْبَضُ عَلَيْهِ أَشَدَّ العُقوباتِ.

كانَتْ مُعْظَمُ عَمَليّاتِ التَّهْريبِ تَجْري على ساحِلِ إنْكِلْترا الجَنوبِيِّ، حَيْثُ تَخَيَّلَ فوكْنِر قَرْيَةَ «**مونفْليت**» مَسْرَحًا لِأَحْداثِ هٰذِهِ الرِّوايَةِ. وكانَ بَعْضُ شَخْصِيّاتِ القِصَّةِ مِنَ المُهَرِّبينَ كَصاحِبِ النُّزُلِ أَلْزَفير بْلوك والقَنْدَلَفْتِ راتْسي. وحَتّى بَطَلُ الرِّوايَةِ جون تْرِنْشَرْد وَجَدَ نَفْسَهُ مُتَوَرِّطًا بَعْدَ أَنِ اكْتَشَفَ بَضائِعَ مُهَرَّبَةً مُخَبَّأَةً في المَقْبَرَةِ تَحْتَ الكَنيسَةِ.

سَرْعانَ ما تَتَّخِذُ الرِّوايَةُ مَدًى أَوْسَعَ مِنْ قَضِيَّةِ التَّهْريبِ والمُهَرِّبينَ، فَبَيْنَما كانَ جون تْرِنْشَرْد في مَقْبَرَةِ الكَنيسَةِ، وَقَعَ على نَعْشِ الكولونيلِ جون موهون المَعْروفِ بِذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ ووَجَدَ عُلْبَةً صَغيرَةً فيها رُموزٌ تَتَعَلَّقُ بِمَكانِ وُجودِ ماسَةٍ ثَمينَةٍ. فَتَحَوَّلَتِ الأَحْداثُ إلى مُغامَرَةٍ مُثيرَةٍ يَقومُ بِها جون تْرِنْشَرْد وأَلْزَفير بْلوك لِلْبَحْثِ عَنْ

هٰذا الكَنْزِ، وقَدْ قادَهُما البَحْثُ إلى قَلْعَةِ «كارِسْبروك» في جَزيرَةِ «وايْت»، ثُمَّ إلى هولندا، ثُمَّ إلى مونفْليت ثانِيَةً.

نالَتْ رِوايَةُ «**مونفْليت**» رَواجًا مُنْذُ أَنْ نُشِرَتْ عامَ ١٨٩٨، فَفيها كُلُّ عَناصِرِ التَّشْويقِ مِنْ صِراعٍ بَيْنَ أَبْطالٍ شُجْعانٍ وأَشْرارٍ طامِعينَ، إلى حَبْكَةٍ رِوائِيَّةٍ آسِرَةٍ تَتَسارَعُ فيها الأَحْداثُ فَتَحْبِسُ أَنْفاسَ القارِئِ وتَسْتَحِثُّهُ على مُتابَعَةِ القِراءَةِ، لِيَعْرِفَ مَثَلًا: كَيْفَ سَيَخْرُجُ جون تْرِنْشَرْد مِنَ المَقْبَرَةِ بَعْدَ أَنْ سُدَّتِ المَنافِذُ؟ وهَلْ سَيَنْجو جون وأَلْزِفير مِنَ الجُنودِ الذينَ يُلاحِقونَهُما؟ وكَيْفَ سَتَنْتَهي كارِثَةُ تَحَطُّمِ السَّفينَةِ؟ وهُناكَ أَسْئِلَةٌ كَثيرَةٌ مُحَيِّرَةٌ كَهٰذِهِ. كُلُّ ذٰلِكَ يَجْعَلُ «**مونفْليت**» رِوايَةً يَصْعُبُ على القارِئِ التَّوَقُّفُ عَنْ قِراءَتِها قَبْلَ الوُصولِ إلى خاتِمَتِها.



مُونْفليت

تَقَعُ قَرْيَةُ مونفْليت على ضَفَّةِ نَهْرِ فلْيت الغَرْبيَّةِ وعلى بُعْدِ نِصْفِ ميلٍ مِنَ البَحْرِ.

عِنْدَما بَدَأَتْ أَحْداثُ هٰذِهِ القِصَّةِ في العامِ ١٧٥٧ كُنْتُ ، أنا جون تْرِنْشَرْد ، في الخامِسَةَ عَشْرَةَ من عُمْري. كُنْتُ يَتيمًا أَعيشُ مَعَ خالَتي في قَرْيَةِ مونفْليت. وكانَتْ خالَتي امْرَأَةً صارِمَةً تولَّتْ أَمْرَ تَرْبِيَتي لا عن مَحَبَّةٍ بَلْ إحْساسًا منها بِالواجِبِ. وبَدا بَيْتُها لِوَلَدٍ يافِعٍ مَكانًا كَئيبًا.

كُنْتُ أَتَجَوَّلُ ذاتَ مَساءٍ في شَوارِعِ القَرْيَةِ وَسْطَ صَمْتٍ وسُكونٍ ، إلّا صَوْتَ مِطْرَقَةٍ يَتَرَدَّدُ صَداهُ من حَوْلي. اِقْتَرَبْتُ من مَصْدَرِ الصَّوْتِ ، فرَأَيْتُ السَّيِّدَ راتْسي ، مُدَبِّرَ المَعْبَدِ ، يَنْقُشُ على شاهِدِ قَبْرٍ جَديدٍ بِضْعَ كَلِماتٍ. سَأَلَني المُدَبِّرُ أن أَرْفَعَ له القِنْديلَ ، فكَشَفَ الضَّوْءُ كَلِماتِ الشّاهِدِ ، وكانَتْ :

في ذِكْرى جيمْس بْلوك

الّذي قُتِلَ بِتاريخِ ٢١ حَزيرانَ (يونيه) ١٧٥٧

عن ١٥ عامًا



كانَ جيمْس بْلوك الابْنَ الوَحيدَ لِأَلْزَفير بْلوك ، صاحِبِ نُزُلِ «الوايْنَط» . وكانَتِ القَرْيَةُ قد صُعِقَتْ لِمَصْرَعِ الفَتى . فقد أَطْلَقَ حاكِمُ قَضاءِ مونفْليت ، السَّيِّدُ ماسكْيو ، النّارَ عَلَيْهِ ، فأَرْداهُ قَتيلًا . حَدَثَ ذٰلِكَ في أَثْناءِ اعْتِقالِ جَماعَةٍ مِنَ المُهَرِّبينَ المَحَلِّيّينَ في لَيْلَةٍ من لَيالي حَزيرانَ (يونيه) .

وكانَ أنِ اقْتيدَ المُهَرِّبونَ في شَوارِعِ القَرْيَةِ مُصَفَّدينَ بِالحَديدِ ، وَسْطَ حُزْنِ السُّكّانِ . لقد كانَ المُعْتَقَلونَ مِنَ القَرْيَةِ نَفْسِها ، وكانَ مَصيرُهُمْ في الغالِبِ الشَّنْقَ .

أَنْهى المُدَبِّرُ راتْسي عَمَلَهُ على شاهِدِ القَبْرِ ، وقالَ : «إنّ إطْلاقَ النّارِ على وَلَدٍ أَمْرٌ فَظيعٌ شَنيعٌ . والآنَ يا بُنَيَّ ، تَعالَ مَعي إلى نُزُلِ الوايْنَط فإنّ أَلْزَفير بِحاجَةٍ إلى مَنْ يُعَزّيهِ .»

تِلْكَ الدَّعْوَةُ إلى مَكانٍ لا يَزورُهُ إلّا الرّاشِدونَ أَدْخَلَتِ الزَّهْوَ إلى نَفْسي . ومَشَيْتُ مَعَ راتْسي جَنْبًا إلى جَنْبٍ .

خَفَّ تَرَدُّدُ النّاسِ على النُّزُلِ ، بَعْدَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الّتي جاؤوا بِها بِجُثَّةِ جيمْس بْلوك إلى مَنْزِلِ أَبيهِ ، وسَجَّوْهُ على طاوِلَةٍ هُناكَ .

كانَ أَلْزَفير بْلوك في الخَمْسينَ من عُمْرِهِ ، وذا قُوَّةٍ بَدَنِيَّةٍ خارِقَةٍ . وعُرِفَ عنه ، على الرُّغْمِ من تَجَهُّمِهِ الدّائِمِ ومَيْلِهِ إلى الانْطِواءِ ، حُبُّهُ لِلنّاسِ . غَيْرَ أنّ مَصْرَعَ ابْنِهِ زادَهُ عُزْلَةً وانْطِواءً .

أَوْضَحَ راتْسي لِصَديقِهِ أَلْزَفير أنّني ساعَدْتُ في العَمَلِ على شاهِدِ قَبْرِ جيمْس ، فكانَ أنْ رَحَّبَ بِيَ الوالِدُ المَفْجوعُ . ثمّ قالَ :

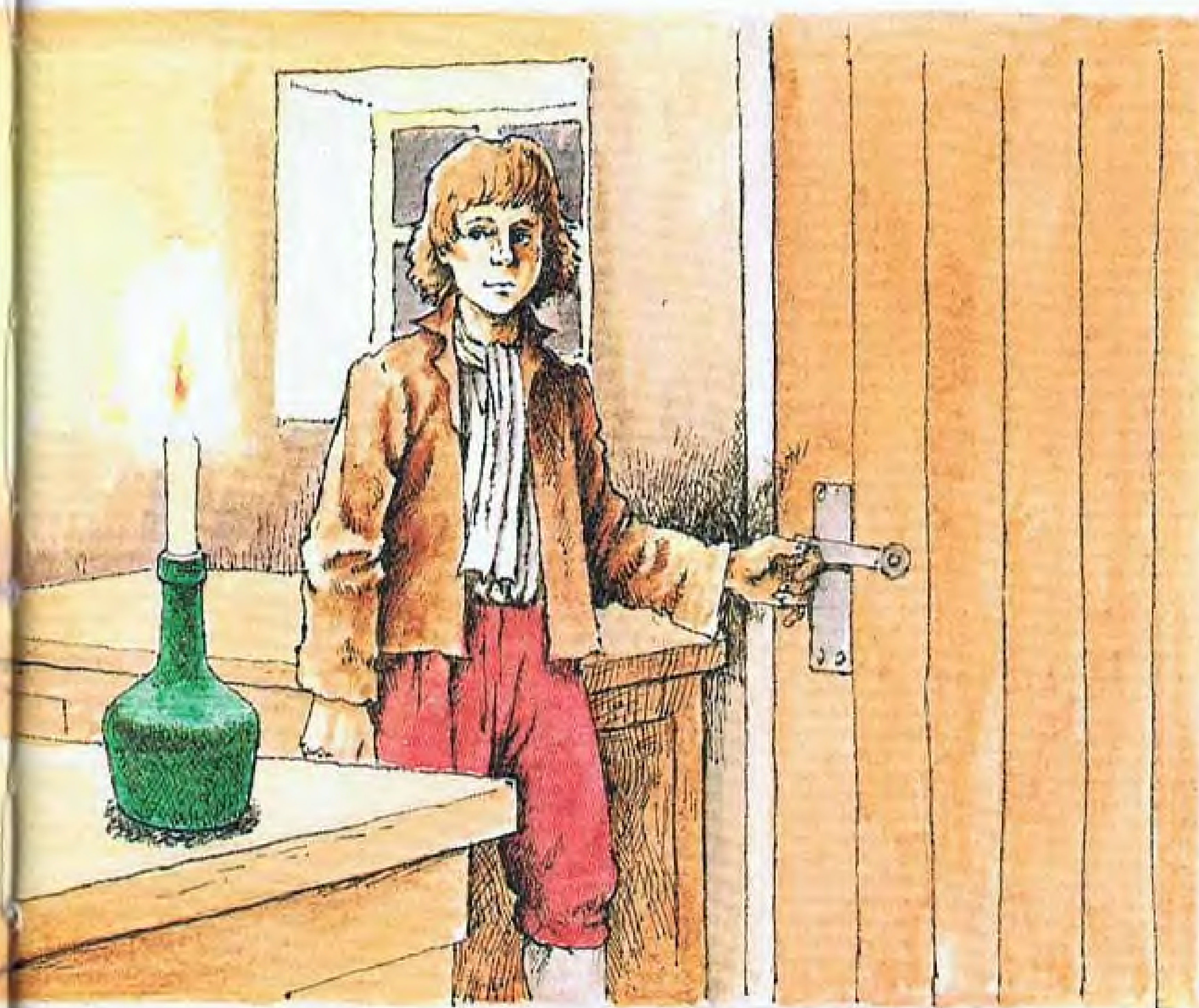


«جيمس يرْقُدُ الآنَ بِسلامٍ. إنّما أولئكَ الّذينَ أنْهَوْا حياتَهُ لَنْ يرْقُدوا بِسلامٍ حينَ تحينُ ساعَتُهُمْ. ولَنْ يكونَ ذٰلِكَ اليَوْمُ بِبَعيدٍ.»

كُنْتُ أَعْلَمُ أنّه يَعْني السَّيِّدَ ماسكيو.

جَلَسْتُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ طَويلاً، إلى أنْ بَدا لي أنّ ألزفير يَرْغَبُ في التَّخَلُّصِ منّي. قالَ:

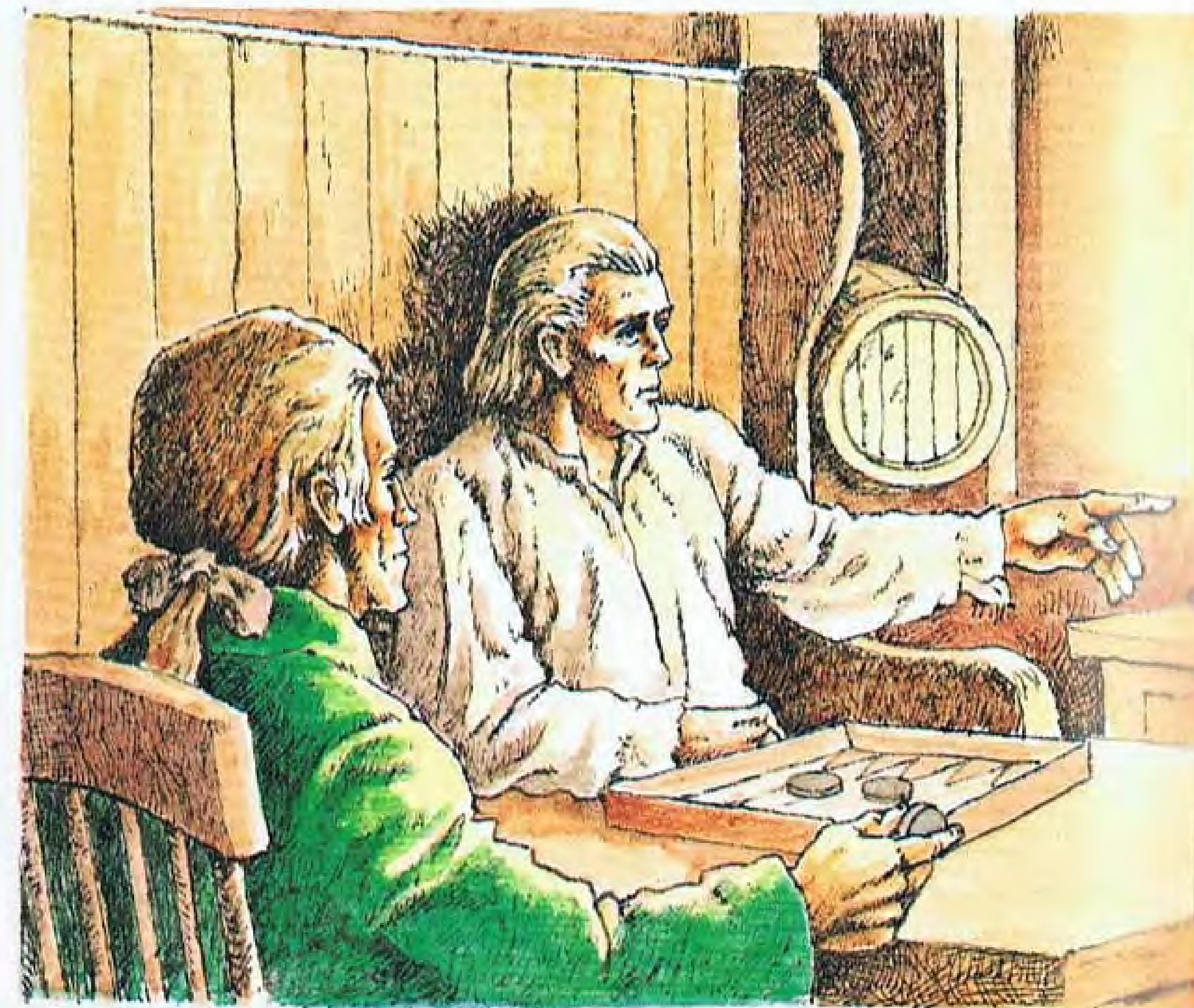
«أيُّها الفتى، حانَ وَقْتُ العَوْدَةِ إلى البَيْتِ. يُقالُ إنّ ذا اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ يَتَرَدَّدُ على شَوارِعِ القَرْيَةِ في لَيالي الشِّتاءِ الأولى. بَلْ إنّ بَعْضَهُمْ قد رَآهُ فِعْلاً في الطَّريقِ نَفْسِها الّتي تَسْلُكُها أنْتَ إلى بَيْتِكَ.»



فَهِمْتُ ما يُريدُ منّي، فتَرَكْتُ المكانَ وانْطَلَقْتُ سَريعًا. على الرُّغْمِ من أنّي لم أَكُنْ أَخْشى مُلاقاةَ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ في أيِّ مكانٍ، إلّا حَوْلَ المقْبَرَةِ.

كانَ ذو اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ، وهو من أُسْرَةِ الموهونِ، قد ماتَ قَبْلَ ذٰلِكَ الوَقْتِ بِقَرْنٍ مِنَ الزّمانِ. وكانَ يُقالُ إنّ شَبَحَهُ يَتَرَدَّدُ على مَدْفَنِ العائِلَةِ في بَعْضِ لَيالي الشِّتاءِ، وإنّ على المَرْءِ إذا الْتَقى بِهِ أنْ يَتَجَنَّبَ نَظْرَةَ عَيْنَيْهِ الشِّرّيرَتَيْنِ، وإلّا حَدَثَ في ذٰلِكَ العامِ مَوْتٌ في القَرْيَةِ.

رَوى لي الكاهِنُ غِلْني قِصَّةَ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ الحَقيقيَّةَ. تَقولُ القِصَّةُ





إنّ الكولونيلَ جون موهون كانَ أَحَدَ الّذينَ ثاروا على المَلِكِ تْشارلْز الأوّلِ ، وإنّ المَلِكَ حُبِسَ في قَلْعَةِ جَزيرةِ وايْت الّتي كانَتْ آنَذاكَ بإمْرَةِ الكولونيل موهون نَفْسِهِ. وقد عَرَضَ المَلِكُ على سَجّانِهِ أنْ يُسَهِّلَ له الفِرارَ ، لِقاءَ ماسةٍ ضَخْمَةٍ. أَخَذَ موهون الماسةَ ، لٰكِنَّهُ عادَ فأَلْقى القَبْضَ على المَلِكِ.

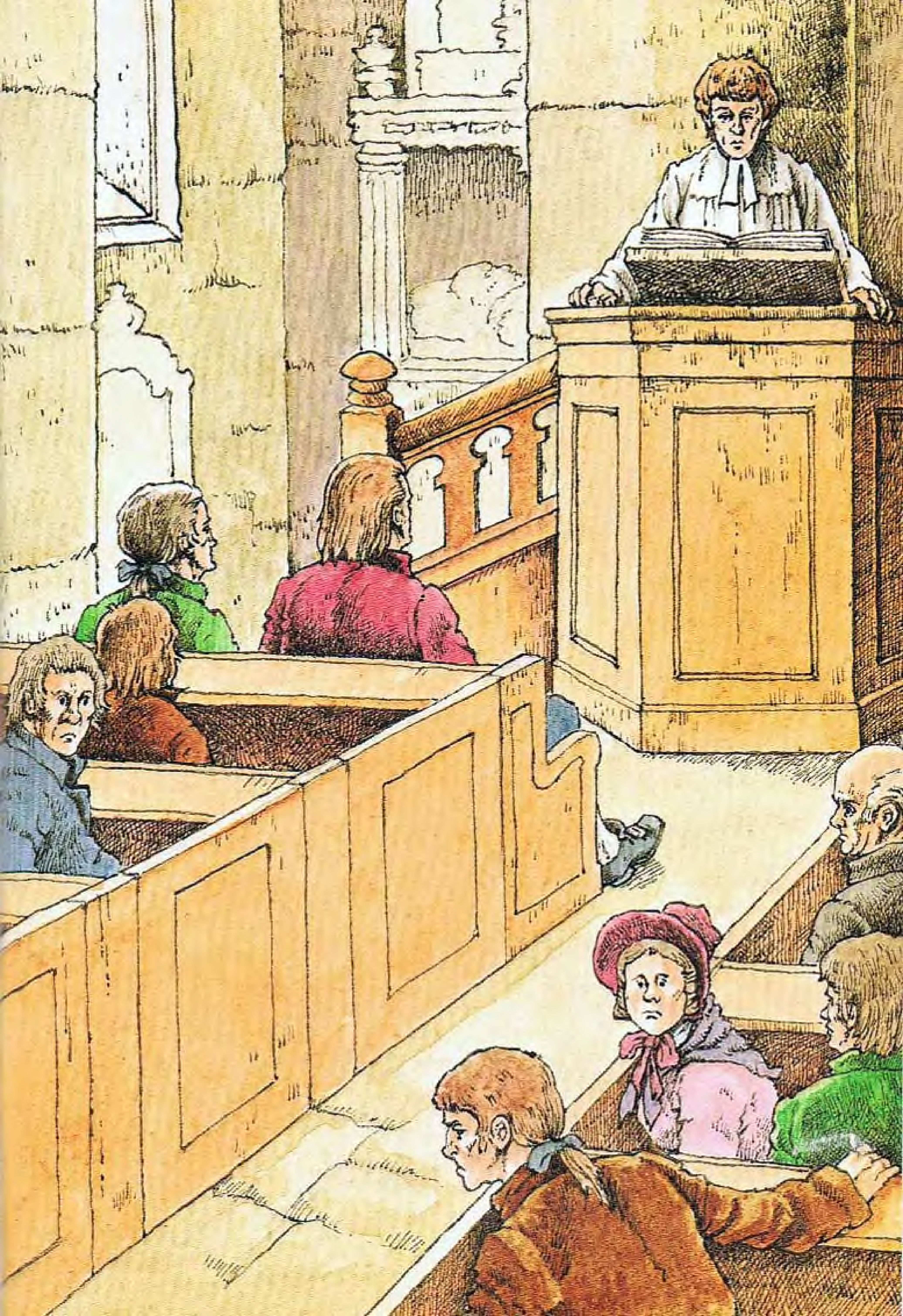
على أنّ عَمْلَةَ الكولونيلِ الشِّرّيرةَ لم تُثْمِرْ ، فلقد أُثيرَتْ حَوْلَهُ الشُّكوكُ وعُزِلَ من مَنْصِبِهِ وعاشَ بَقِيّةَ حياتِهِ البائِسَةِ في عُزْلَةٍ. وكانَ يُقالُ إنّ روحَهُ لم تَجِدِ السَّلامَ بَعْدَ المَوْتِ ؛ ذٰلِكَ أنّه كانَ قد خَبَّأَ الكَنْزَ الّذي أَخَذَهُ مِنَ المَلِكِ ، لٰكِنَّهُ لم يَجْرُؤْ على اسْتِعادَتِهِ ، وماتَ سِرُّ مَكانِ الكَنْزِ بِمَوْتِ صاحِبِهِ.



وكُنْتُ أنا أَتَرَدَّدُ على المَقْبَرَةِ نَهارًا ، لِأَنّ مَشْهَدَ البَحْرِ من ذٰلِكَ المَكانِ مُثيرٌ. غَيْرَ أنّي لم أَكُنْ أَجْرُؤُ على الذَّهابِ إلى هُناكَ لَيْلًا. وحَدَثَ أنْ رَأَيْتُ في إحْدى اللَّيالي ضَوْءًا يَتَحَرَّكُ في المَقْبَرَةِ. وكُنْتُ ساعَتَئِذٍ أَجْتازُ مَمَرًّا جانِبِيًّا مُخْتَصَرًا ، في طَريقي لاسْتِدْعاءِ الطَّبيبِ لِخالَتي.

بَعْدَ هٰذِهِ الحادِثَةِ بِأَيّامٍ هَبَّتْ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ عاتِيَةٌ ، لم أَعْرِفْ في حَياتي مَثيلًا لها. بَلَغَتِ العاصِفَةُ أَوْجَها في الخامِسَةِ صَباحًا ، ونَتَجَ عنها دَمارٌ شَديدٌ. ورافَقَ ذٰلِكَ ارْتِفاعُ مِياهِ المَدِّ الرَّبيعِيِّ. فنَشَأَ عَنِ الأَمْرَيْنِ أنْ غَطَّتْ مِياهُ الفَيَضانِ أَرْضَ القَرْيَةِ كُلَّها ، بما في ذٰلِكَ المَقْبَرَةُ. غَيْرَ أنّ المَعْبَدَ المُجاوِرَ ظَلَّ بِمَنْأًى عَنِ المِياهِ لأنّهُ كانَ قائِمًا فَوْقَ أَعْلى نُقْطَةٍ مِنَ الأَرْضِ ، فَظَلَّ بارِزًا وكأنّهُ جَزيرَةٌ في بَحْرٍ.

لم يَحْضُرِ الصَّلاةَ يَوْمَ الأَحَدِ إلّا قِلَّةٌ مِنَ القَرَوِيّينَ. لٰكِنَّ الّذي فاجَأَ النّاسَ ، أنّ أَلْزَقير الّذي نادِرًا ما كانَ يَأْتي إلى الصَّلاةِ ، كانَ في ذٰلِكَ اليَوْمِ واحِدًا من تِلْكَ القِلَّةِ مِنَ المُصَلّينَ.



تَرَدَّدَتْ في آذانِ المُصَلّينَ في ذٰلِكَ اليَوْمِ أَصْواتٌ غَريبَةٌ جَوْفاءُ كانَتْ تَأْتيهِمْ من جِهَةِ مَدْفَنِ آلِ موهون. بَدَتْ تِلْكَ الأَصْواتُ لي وكَأَنَّها زَوارِقُ في البَحْرِ يَصْدِمُ بَعْضُها بَعْضًا.

وقد دَبَّ الذُّعْرُ في مُعْظَمِ المُصَلّينَ ففَرّوا، ولم يَبْقَ إلّا الكاهِنُ والمُدَبِّرُ راتْسي وأَلْزَقير بْلوك وأنا. أَنْهى الكاهِنُ الصَّلاةَ، ثمّ ذَكَرَ لي أنّ الأَصْواتَ لا بُدَّ ناجِمَةٌ عَنِ النُّعوشِ الّتي عامَتْ فَوْقَ مِياهِ الفَيَضانِ وراحَتْ تَتَصادَمُ. وبَدا لي ذٰلِكَ وَحْدَهُ كافِيًا لإثارَةِ الذُّعْرِ في نَفْسي.

حَدَّثَني الكاهِنُ، بَعْدَ ذَهابِ راتْسي وأَلْزَقير، بِأَخْبارٍ أُخرى عن ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ، أوِ الكولونيل موهون. فإنّه كانَ أَوَّلَ واحِدٍ مِنَ الموهونِ يُخالِفُ تَقاليدَ تِلْكَ العائِلَةِ. كما إنّه كانَ أَوَّلَ مَنْ أَهْمَلَ مُمْتَلَكاتِ عائِلَتِهِ وتَرَكَها لِيَدِبَّ فيها الخَرابُ، بما في ذٰلِكَ مَأْوى الفُقَراءِ الّذي دَأَبَتِ العائِلَةُ على إبْقائِهِ مَفْتوحًا. بَلْ إنّه قَتَلَ، يَوْمًا، خادِمًا بَريئًا كانَ شاهِدًا على سِرٍّ من أَسْرارِهِ الخَبيثَةِ.

رَغِبَ الكولونيلُ موهون في أَواخِرِ حَياتِهِ البائِسَةِ الظّالِمَةِ أنْ يُكَفِّرَ عن ذُنوبِهِ فيُصْلِحَ مَأْوى الفُقَراءِ ويَعيشَ حَياةً مُسْتَقيمَةً. وأَوْصى أنْ تُسْتَخْدَمَ الماسَةُ الّتي أَخَذَها مِنَ المَلِكِ في هٰذا السَّبيلِ. لٰكِنَّ المَنِيَّةَ عاجَلَتْهُ قَبْلَ أنْ يَسْتَرْجِعَ الماسَةَ، وقَبْلَ أنْ يَكْشِفَ عن سِرِّ مَكانِها.

لٰكِنَّ هٰذِهِ الأَخْبارَ لم تُخَفِّفْ من ذُعْري، فقد كُنْتُ لا أَزالُ أَجِدُ في تَصادُمِ النُّعوشِ العائِمَةِ، ونَعْشُ الكولونيلِ من بَيْنِها، أَمْرًا مُرْعِبًا. وكُنْتُ في حَيْرَةٍ أَيْضًا، أَتَساءَلُ كَيْفَ يُمْكِنُ أنْ تُصْدِرَ النُّعوشُ المُهْتَرِئَةُ مِثْلَ تِلْكَ الأَصْواتِ القَوِيَّةِ الحادَّةِ.

عُدْتُ في اليَوْمِ التّالي إلى المَقْبَرَةِ ، مَدْفوعًا بفُضولي لاسْتِكْشافِ ما إذا كانَ مَوْتى الموهونِ لا يَزالونَ يَتَصادَمونَ. وفاجَأَني أَنْ أَجِدَ أَلْزَقير وراتْسي قد سَبَقاني إلى هناك. وكانَ راتْسي يَضَعُ أُذُنَهُ على جِدارِ المَقْبَرَةِ.

حَيَّيْتُهُما ، فالْتَفَتَ إِلَيَّ راتْسي ، وقد بَدا عَلَيْهِ الارْتِباكُ. وقالَ لي بِشَيْءٍ مِنَ التَّرَدُّدِ إنّه جاءَ لِيَفْحَصَ جِدارَ المَقْبَرَةِ بَعْدَ الفَيَضانِ لِيَعْرِفَ ما إذا كانَ بِحاجَةٍ إلى إصْلاحٍ. ثمّ طَلَبَ منّي أَنْ أَعودَ إلى القَرْيَةِ وأَجْلُبَ له بَعْضَ مُعَدّاتِ الإصْلاحِ.

لم يَغِبْ عن بالي أنّه لم يَكُنْ يُريدُ إلّا إبْعادي. وقد رَأَيْتُ عَيْنَيْ أَلْزَقير تَتَأَلَّقانِ إعْجابًا بالحُجَّةِ الّتي لَفَّقَها صاحِبُهُ.

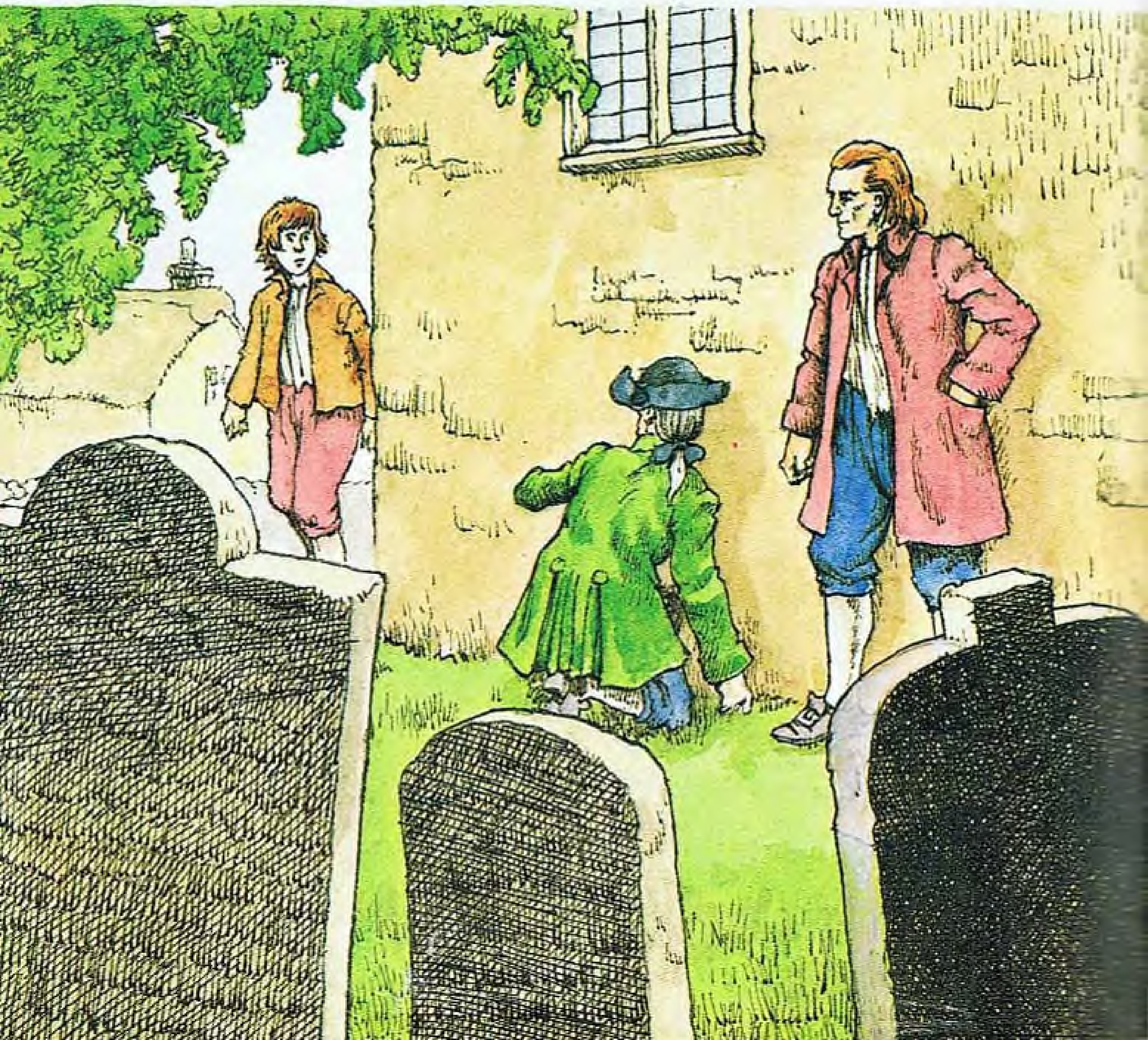
وذَهَبْتُ في الأَحَدِ التّالي إلى الصَّلاةِ ، فلم يَكُنْ أَلْزَقير هُناكَ ، ولم أَسْمَعْ صَوْتَ الموهونِ يَتَحَرَّكونَ.

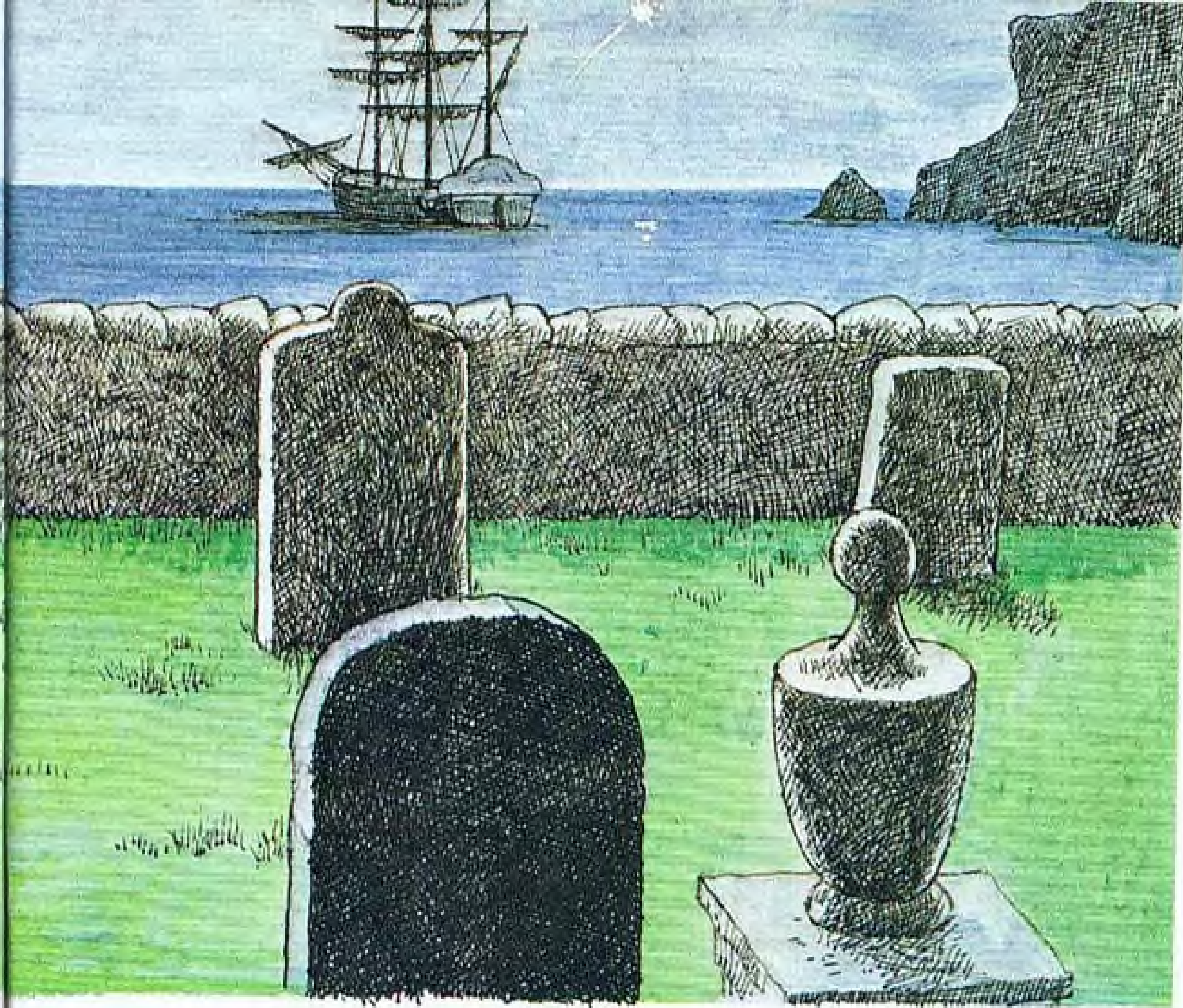
وحَدَثَ أنّي بَقِيتُ أَسابيعَ بَعْدَ ذلِكَ دونَ أَنْ أَزورَ المَقْبَرَةَ. ثمّ زُرْتُها مَرَّةً ، وجَلَسْتُ على شاهِدِ قَبْرٍ مُنْبَسِطٍ قُرْبَ الجدارِ اعْتَدْتُ أنْ أَجْلِسَ عَلَيْهِ. وكانَ المَكانُ مُحاطًا بِأَشْجارِ الطَّقْسوسِ من جِهاتِهِ الثَّلاثِ. أَخَذْتُ مِنَ الجِهَةِ الرّابِعَةِ أُراقِبُ البَحْرَ عَلّني أَرى سَفينَةً حَرْبِيَّةً فَرَنْسِيَّةً ، إذ كانَتْ فَرَنْسا وإنْكِلْترا آنَذاكَ في حَرْبٍ.

وعلى الرُّغْمِ أنّنا كُنّا في شَهْرِ شُباطَ (فِبْراير) فقد كانَ الطَّقْسُ دافِئًا ، وكانَتْ مِياهُ الفَيَضانِ قد جَفَّتْ تَمامًا ، وتَخَلَّفَ عن ذلِكَ شُقوقٌ في الأَرْضِ في مواضِعَ كَثيرَةٍ من مونَفْليت.

ونَحْوَ السّاعةِ الرّابعةِ سَمِعْتُ فَجأةً قَرْقَعةً وأَصْواتَ تَشَقُّقٍ ، فأُصِبْتُ بذُعْرٍ شَديدٍ. قَفَزْتُ من مَكاني ، ونَظَرْتُ حَوْلي فرَأَيْتُ في جانِبِ القَبْرِ الّذي أَجْلِسُ عَلَيْهِ فُتْحَةً بِاتّساعِ قَدَمٍ واحِدَةٍ.

اِنْحَنَيْتُ ونَظَرْتُ في الفُتْحَةِ ، فلاحَظْتُ أنّها تَتَّصِلُ بِتَجْويفٍ واسِعٍ. حَشَرْتُ نَفْسي ونَزَلْتُ في التَّجْويفِ فوَجَدْتُ نَفْسي في مَمَرٍّ يَتَّجِهُ صَوْبَ المَعْبَدِ. مَشَيْتُ في المَمَرِّ مَسافَةً قَصيرَةً ، ثمّ ارْتَدَدْتُ مَذْعورًا من شِدَّةِ الظّلامِ. لَكِنّي كُنْتُ قد عَقَدْتُ العَزْمَ على العَوْدَةِ ومَعي قَدّاحَةٌ وشَمْعَةٌ.





كُنْتُ قد تأَخَّرْتُ عن مَوْعِدِ الطَّعامِ ، مِمّا أَثارَ غَيْظَ خالَتي. ومَنَعَتْني خالَتي من مُغادَرَةِ المَنْزِلِ مَساءً بَعْدَ ذٰلِكَ اليَوْمِ ، وزَعَمَتْ أنّي أَتَصَرَّفُ من دونِ وَعْيٍ أو ضَوابِطَ .

على أيِّ حالٍ فإنّي انْتَظَرْتُها حتّى نامَتْ ، وقُمْتُ إلى المَطْبَخِ. أَخَذْتُ قَدّاحَةً وشَمْعَةً ، وتَسَلَّلْتُ خارِجَ البَيْتِ ، وقد عَقَدْتُ العَزْمَ على اسْتِكْشافِ المَمَرِّ السِّرِّيِّ في قَلْبِ المَقْبَرَةِ.

مَرَرْتُ في طَريقي بِنُزُلِ الوايْنَط. وفاجَأَني أنّ ضَوْءًا كان لا يَزالُ في تِلْكَ السّاعَةِ المُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ يَنْبَعِثُ منه ، وأنّ أَصْواتًا كانَتْ تَتَرَدَّدُ داخِلَهُ .



اِنْطَلَقْتُ عَبْرَ المَرْجِ مُتَهَيِّبًا ، وصورَةُ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ لا تُفارِقُ مُخَيِّلَتي. وعِنْدَما وَصَلْتُ إلى المَقْبَرَةِ ، وَقَفْتُ لَحْظَةً أَنْظُرُ إلى البَحْرِ فرَأَيْتُ إشارَةً ضَوْئِيَّةً زَرْقاءَ تَنْطَلِقُ من مَرْكَبٍ كانَ راسِيًا هُناكَ. أَدْرَكْتُ أنّ مَرْكَبًا لِلْمُهَرِّبينَ يُرْسِلُ إشاراتٍ إلى الشّاطِئِ.

اِسْتَجْمَعْتُ شَجاعَتي ونَزَلْتُ في فُتْحَةِ القَبْرِ ، ومَشَيْتُ في المَمَرِّ على ضَوْءِ الشَّمْعَةِ ، فإذا هو نَحْوَ العِشْرينَ مِترًا طولًا . ولم أَنْقَطِعْ في أَثْناءِ ذٰلِكَ عَنِ التَّفْكيرِ في كَنْزِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ ، آمِلًا أنْ أَعْثُرَ ، في جَوْلَتي الاِسْتِكْشافِيَّةِ تِلْكَ ، على مَكانِ إخْفائِهِ .

اِنْفَتَحَ المَمَرُّ أَخيرًا على قاعَةٍ واسِعَةٍ ، جُدْرانُها وسَقْفُها مِنَ الحَجَرِ ، وفي إحْدى زَواياها دَرَجٌ يَنْتَهي بِفُتْحَةٍ في السَّقْفِ مُغَطّاةٍ بِحَجَرٍ مُنْبَسِطٍ ضَخْمٍ. وعلى جَوانِبِ الغُرْفَةِ رُفوفٌ رُفِعَتْ عَلَيْها نُعوشٌ كَثيرَةٌ.

أَدْرَكْتُ أَنّي دَخَلْتُ مَدْفَنَ الموهونِ. ولاحَظْتُ أَنّ مِياهَ الفَيَضانِ كانَتْ فِعْلًا قد مَلَأَتِ القاعَةَ ، وتَرَكَتْ وراءَها آثارًا. لَكِنّي لاحَظْتُ أَيْضًا أَنّ الأَصْواتَ المُرْعِبَةَ الّتي سَمِعْناها لم تَكُنْ صادِرَةً عن تَصادُمِ النُّعوشِ ، بَلْ عن تَصادُمِ صَناديقَ وبَراميلَ رَأَيْتُها مُكَوَّمَةً في وَسَطِ القاعَةِ. كانَ واضِحًا أَنّي دَخَلْتُ المَكانَ الّذي يُخَبِّئُ فيه المُهَرِّبونَ بَضائِعَهُمْ.

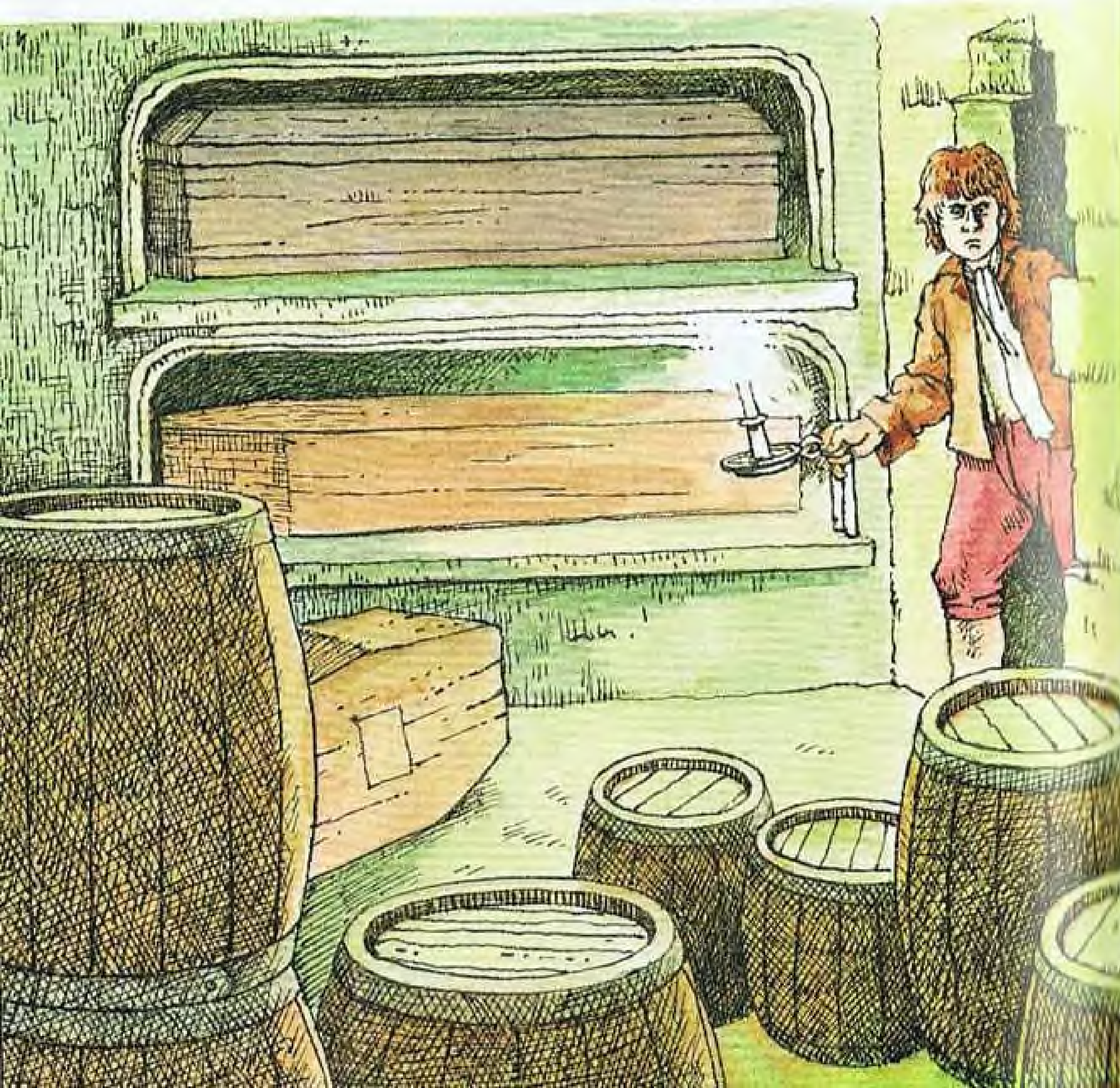
على أَنّ اهْتِمامي كانَ مُنْصَبًّا على العُثورِ على كَنْزِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ ، فَرُحْتُ أَتَفَحَّصُ الجُدْرانَ. وبَعْدَ قَليلٍ سَمِعْتُ أَصْواتَ رِجالٍ يَقْتَرِبونَ.



رَأَيْتُ أَنّ المَكانَ الوَحيدَ الّذي يُمْكِنُني الاِخْتِباءُ فيه هو الفُسْحَةُ الضَّيِّقَةُ وَراءَ النَّعْشِ الضَّخْمِ في الرَّفِّ الأَعْلى.

قَفَزْتُ قَفْزَةَ مَذْعورٍ كِدْتُ مَعَها أَقَعُ أَرْضًا ، ورَمَيْتُ نَفْسي وَراءَ النَّعْشِ في اللَّحْظَةِ الّتي أَخَذَتْ فيها مَشاعِلُ الرِّجالِ تُضيءُ مَدْخَلَ القاعَةِ.

رَأَيْتُ رِجالًا يَدْخُلونَ ، وهم يَحْمِلونَ صَناديقَ وبَراميلَ. ثمّ فوجِئْتُ بِصَوْتِ راتْسي يَشْرَحُ لِلرِّجالِ كَيْفَ أَنّه يَسْتَطيعُ أَنْ يَفُضَّ خَتْمَ المَمَرِّ ويُعيدَهُ إلى حالِهِ دونَ أَنْ يُثيرَ الشُّبُهاتِ.



وجَرى الحَديثُ ، ثمّ جاءَني صَوْتُ ألْزَقير وهو يُصرِّحُ أنّه سيَنْتَقِمُ من ماسكْيو ، قاتِلِ ابْنِهِ جيمْس.

لكِنّ ما أثارَ قلَقي هو أنّ الرِّجالَ أتَوْا على ذِكْري. قالوا إنّهم رأَوْني في كَثيرٍ مِنَ المرّاتِ أتَرَدَّدُ على المقْبَرَةِ ، ثمّ أتّجِهُ صَوْبَ قَصْرِ الحاكِمِ ماسكْيو. ورأى بَعْضُهُمْ أنّي قد أكونُ مُخْبِرًا.

كُنْتُ فِعْلًا أتَرَدَّدُ على الحَرَجَةِ المُحيطَةِ بالقَصْرِ ، أمَلًا في رُؤْيَةِ غْريس ماسكْيو ، ابْنَةِ الحاكِمِ ، الّتي أحْبَبْتُها حُبًّا جُنونيًّا. وكانَتْ غْريس ، على عَكْسِ أبيها ، رَقيقَةً صادِقَةً مُحِبَّةً.

هدَأَ خوْفي عِنْدَما تحدَّثَ راتْسي مُدافِعًا عَنّي. فلم يَكُنْ مُسْتَغْرَبًا أنْ يُلاقِيَ أُولٰئِكَ الّذينَ يَحومونَ حَوْلَ أسْرارِ المُهَرِّبينَ نِهايَةً غامِضَةً فُجائيَّةً.

ثمّ فوجِئْتُ بألْزَقير يقولُ : «هٰذا الوَلَدُ شُجاعٌ. أُحِبُّهُ كابْنٍ لي. إنّه في سِنِّ ابْني جيمْس ، وسيَكونُ بَحّارًا عَظيمًا.»

اِنْتَهى الرِّجالُ ، بَعْدَ ذٰلِكَ بِوَقْتٍ قَصيرٍ ، من إدْخالِ بَضائِعِهِمْ. وسَمِعْتُ أصْواتَ أقْدامِهِمْ تَبْتَعِدُ وانْطَفَأَتْ مَشاعِلُهُمْ.

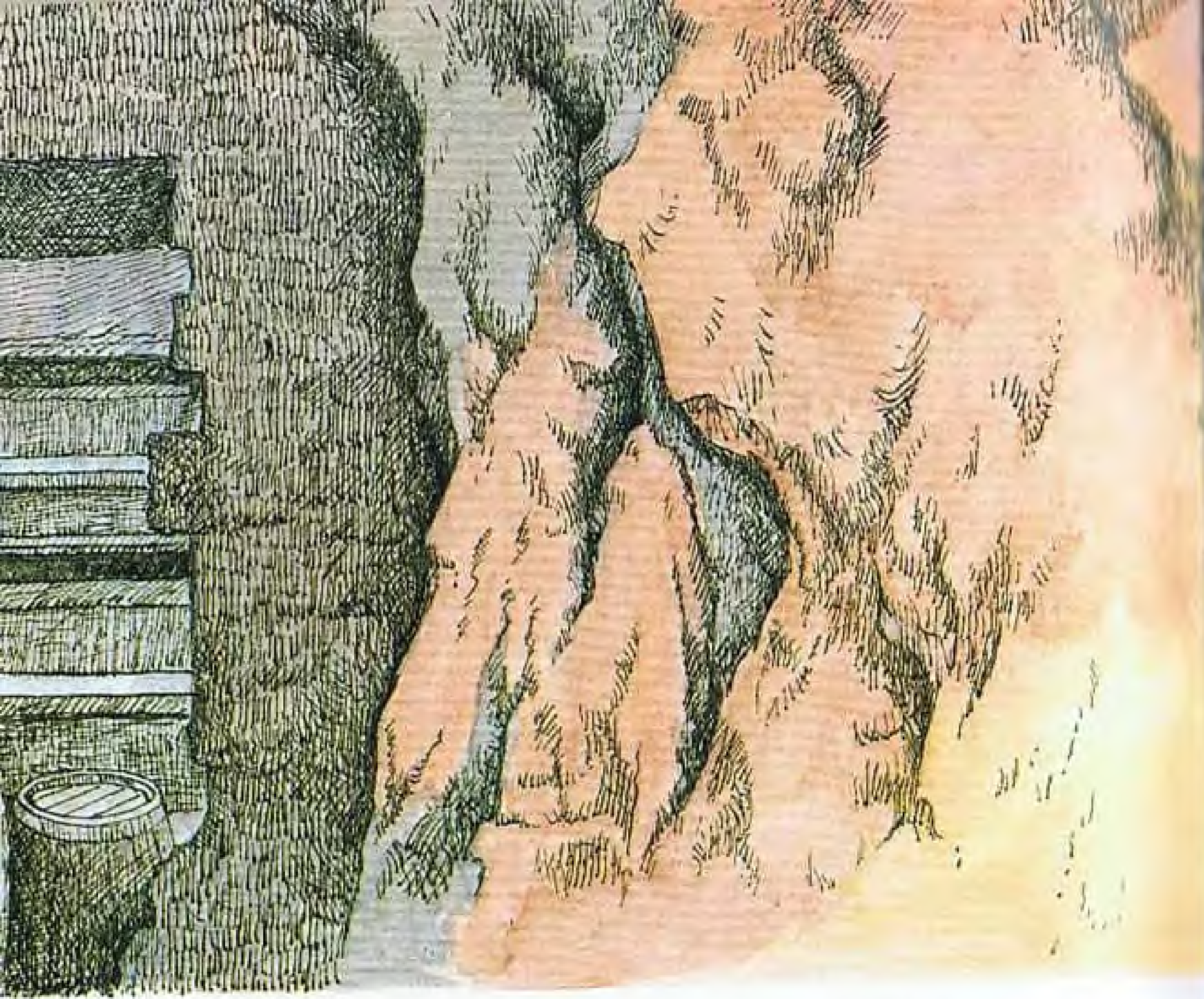




عِنْدَئِذٍ أَضَأْتُ شَمْعَتِي ورَفَعْتُ ساقِي فَوْقَ النَّعْشِ لِأَنْزِلَ عَنِ الرَّفِّ. لٰكِنَّ قَدَمِي زَلَّتْ. وتَمَسَّكْتُ في أَثْناءِ سُقوطِي بِما وَصَلَتْ إِلَيْهِ يَدايَ، فلم أَتَمَكَّنْ مِنَ الإِمْساكِ إِلّا بِما بَدا لي في تِلْكَ اللَّحْظَةِ عُشْبَةً أو قِطْعَةً من قُماشٍ.

اِنْطَفَأَتِ الشَّمْعَةُ في أَثْناءِ سُقوطِي، فَأَعَدْتُ إِضاءَتَها. ولَشَدَّ ما كانَ فَزَعِي حِينَ رَأَيْتُ بَيْنَ يَدَيَّ لِحْيَةَ إِنْسانٍ. رَمَيْتُ اللِّحْيَةَ من يَدِي كما تُرْمى جَمْرَةٌ، فقد أَدْرَكْتُ أَنَّها لِحْيَةُ الكولونيلِ جون موهون.

رُحْتُ أَجْرِي في المَمَرِّ مَذْعورًا، ثمّ تَمالَكْتُ بَعْدَ حِينٍ نَفْسِي وعُدْتُ أُفَتِّشُ عَنِ الكَنْزِ. ولم أَحْظَ لِقاءَ آلامِي إِلّا بِعُلَيْبَةٍ فِضِّيَّةٍ مُسْوَدَّةٍ كانَتْ مُعَلَّقَةً



بِسِلْسِلَةٍ حَوْلَ عُنُقِ الكولونيلِ جون موهون. في داخِلِ تِلْكَ العُلَيْبَةِ وَجَدْتُ وَرَقَةً كُتِبَ عَلَيْها بَعْضُ المَزامِيرِ.

كانَتْ شَمْعَتِي قد أَوْشَكَتْ على نِهايَتِها، فَقَرَّرْتُ العَوْدَةَ. لٰكِنِّي لاحَظْتُ أَنَّ راتْسِي كانَ قد سَدَّ المَمَرَّ. لم أَخَفْ كَثيرًا أَوَّلَ الأَمْرِ ظَنًّا مِنِّي أَنِّي أَسْتَطيعُ زَحْزَحَةَ حَجَرٍ. ثمّ انْطَفَأَتْ شَمْعَتِي ووَجَدْتُ نَفْسِي في ظَلامٍ دامِسٍ.

بَقِيتُ حَبيسًا في ذٰلِكَ المَمَرِّ ثَلاثَةَ أَيّامٍ، في حالٍ لا تُوصَفُ مِنَ اليَأْسِ والفَزَعِ. بَدا لي أَنِّي لن أَخْرُجَ من ذٰلِكَ المَكانِ أَبَدًا. وكُنْتُ أَصْرُخُ من فَزَعِي صُراخَ مَجْنونٍ إلى أَنْ أَقَعَ مَغْشِيًّا عَلَيَّ.

عُدْتُ إلى وَعْيي مَرَّةً فوَجَدْتُ نَفْسي أَنامُ في سَريرٍ في غُرْفَةٍ عُلْوِيَّةٍ من نُزُلِ الوايْنَط ، وأَلْزَقير إلى جانِبي.

رَوى لي كَيْفَ أنّ أَحَدَ القَرَوِيّين سَمِعَ صُراخًا صادِرًا عَنِ القُبورِ ، فأَصابَهُ ذُعْرٌ شَديدٌ. وعِنْدَما شاعَ أَمْرُ غِيابي ، أَدْرَكَ هو وراتْسي ما حَدَثَ ، وأَسْرَعا إلى المَقْبَرَةِ لإِنْقاذي.

لم تُبْدِ خالَتي قَلَقًا لِغيابي. وعِنْدَما عُدْتُ إلى البَيْتِ أَنْكَرَتْني وتَبَرَّأَتْ مني وصَفَقَتِ البابَ في وَجْهي.



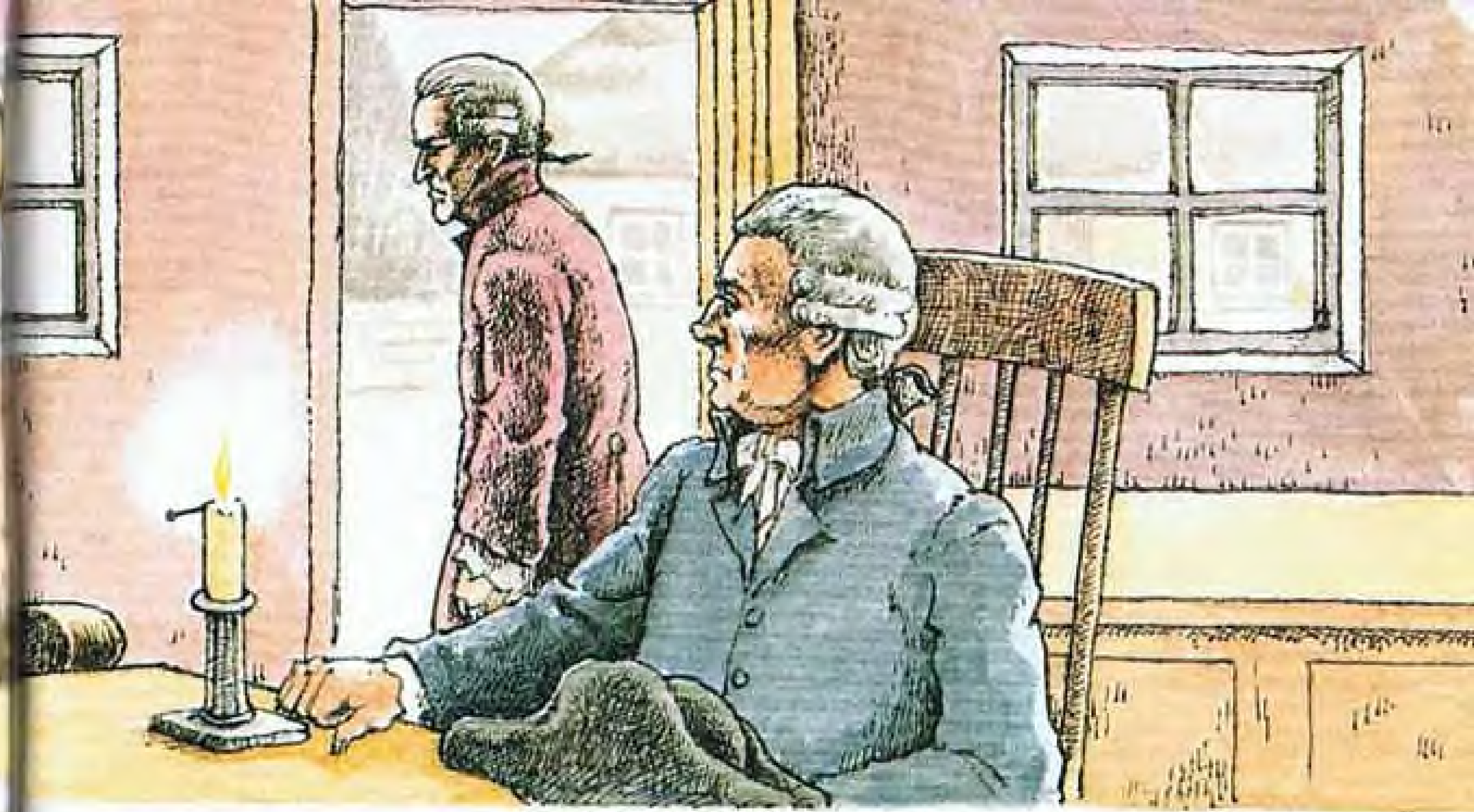
عُدْتُ إلى نُزُلِ الوايْنَط حَزينًا مُكْتَئِبًا. فاسْتَقْبَلَني أَلْزَفير بِعَطْفٍ وفَتَحَ لي بابَ بَيْتِهِ. وقالَ: «لقد قُدِّرَ لي أنْ أُنقِذَ حَياتَكَ، وستكونُ لِذٰلِكَ في مَنْزِلَةِ ابْني جيمْس.»

كَثيرًا ما كُنْتُ أَتَساءَلُ كَيْفَ يَنْغَمِسُ رَجُلُ دينٍ صالِحٌ مِثْلُ راتْسي، ورَجُلٌ عَطوفٌ مِثْلُ أَلْزَفير، في أَعْمالِ تَهْريبٍ مُخالِفَةٍ لِلقانونِ. على أنّي بَدَأْتُ أَشْعُرُ أنَّ أُولٰئِكَ الرِّجالَ يُحِسّونَ بِالمَظالِمِ الّتي يَفْرِضُها رِجالُ الإدارَةِ عَلَيْهِمْ، وبِالضَّرائِبِ القاسِيَةِ الّتي تَفوقُ طاقاتِهِمْ، وهم لِذٰلِكَ يَشْعُرونَ أنَّ لِتَهَرُّبِهِمْ من دَفْعِ الضَّريبَةِ تَبْريرًا.

كانَ السَّيِّدُ ماسكيْو مُحامِيًا يُمارِسُ مِهْنَتَهُ في مَدينَةٍ قَريبَةٍ. ثمّ انْتَقَلَ إلى مونفْليت واشْتَرى قَصْرًا، قَبْلَ أنْ تَقَعَ أَحْداثُ هٰذِهِ القِصَّةِ بِأَرْبَعِ سَنَواتٍ. وعِنْدَما اخْتيرَ حاكِمًا لِذٰلِكَ القَضاءِ أَقْسَمَ على أنْ يَضَعَ حَدًّا لِعَمَلِيّاتِ التَّهْريبِ في المِنْطَقَةِ، وأنْ يَسْتَخْدِمَ كُلَّ وَسيلَةٍ مُمْكِنَةٍ لِلقَضاءِ على المُهَرِّبينَ.

كانَ قاسِيًا في مُعامَلَتِهِ أُولٰئِكَ الّذينَ يَحْدُثُ أنْ يَمُرّوا في مُمْتَلَكاتِهِ. وأَهْمَلَ أَمْرَ العِنايَةِ بِتِلْكَ المُمْتَلَكاتِ، فأَخَذَ البِلى يَدِبُّ في القَصْرِ نَفْسِهِ. وعاشَ وَحيدًا مَعَ ابْنَتِهِ الّتي أَهْمَلَها إهْمالَهُ بَيْتَهُ وكُلَّ شَيْءٍ حَوْلَهُ.

وقد وَقَعَتْ حادِثَةٌ مُؤْسِفَةٌ في المَدْرَسَةِ أَخْرَجَ ماسكيْو على إثْرِها ابْنَتَهُ مِنَ المَدْرَسَةِ، وأَهانَ المُعَلِّمَ. تَمَلَّكَتْني بَعْدَ تِلْكَ الحادِثَةِ رَغْبَةٌ شَديدَةٌ في مُساعَدَةِ أَلْزَفير والآخَرينَ في تَهْريبِ البَضائِعِ، نِكايَةً في ماسكيْو ولِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الأَسْبابِ.

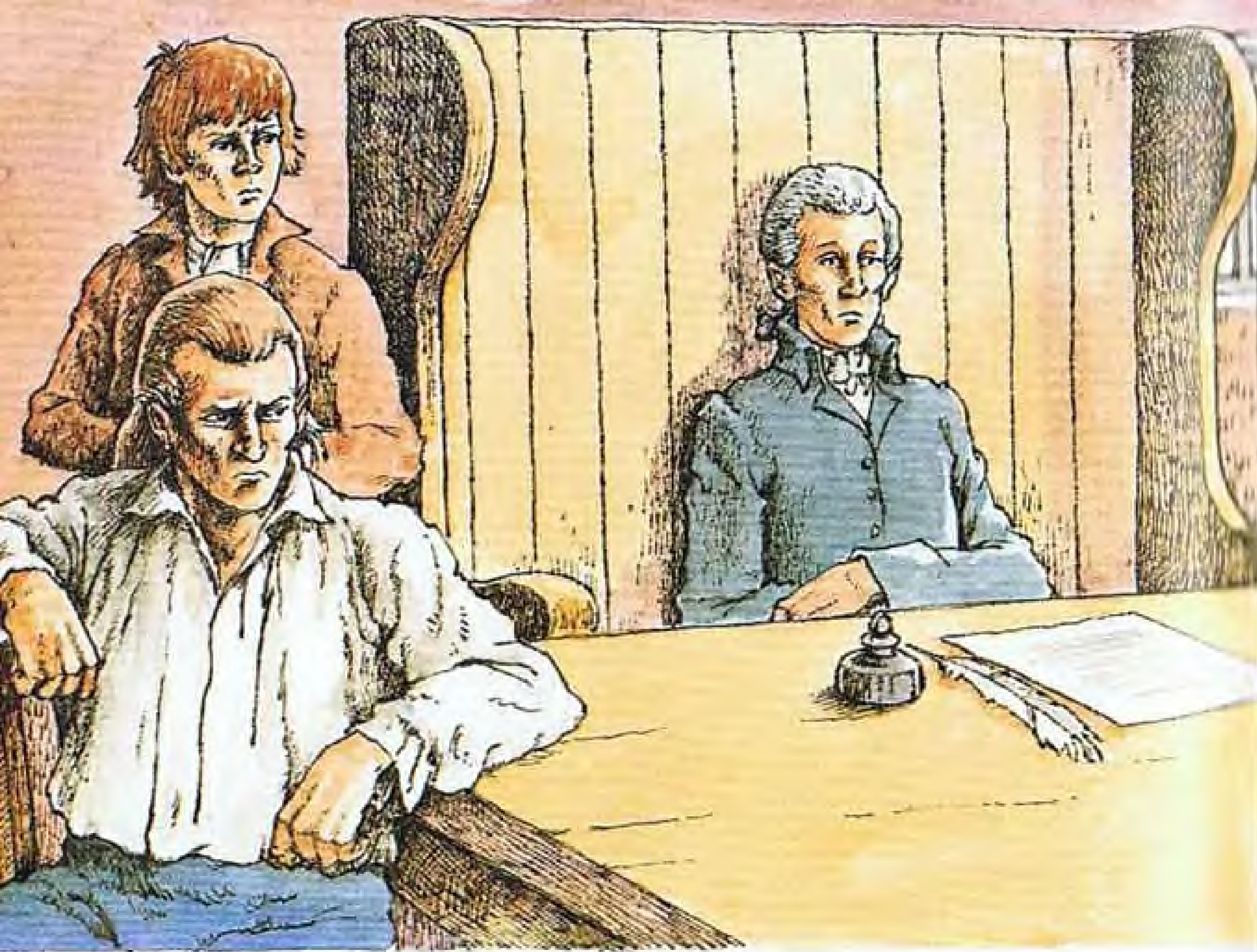


وكانَ أنْ سَمَحَ لي ألْزَقير أنْ أعْمَلَ حارِسًا على مَدْخَلِ المَمَرِّ السِّرِّيِّ. وحَرَصْتُ على أنْ أضَعَ حَوْلَ عُنُقي دائِمًا سِلْسِلَةَ الكولونيلِ جون موهون، بَعْدَ أنْ رَسَخَ في ذِهْني أنّها تَعْويذَةٌ تَمْنَعُ الشَّرَّ عن حامِلِها.

ومِنَ المُؤْسِفِ أنّه لم يَكُنْ من تَعْويذَةٍ تُخَلِّصُ ألْزَقير من سوءِ الطّالِعِ الّذي كانَ سَيَحُلُّ بِهِ.

كانَ عَقْدُ إيجارِ نُزُلِ الوايْنَط يَتَجَدَّدُ كُلَّ خَمْسِ سَنَواتٍ، فيَأْتي وَكيلُ النُّزُلِ ومُساعِدُهُ لِهٰذِهِ الغايَةِ من لَنْدَن. وكانَتْ عَمَلِيَّةُ تَجْديدِ العَقْدِ روتينِيَّةً مَعْروفَةَ النَّتيجَةِ، لكِنَّها مَعَ ذٰلِكَ تَتَّبِعُ نَمَطًا مُعَيَّنًا يَسْمَحُ لِأَيٍّ كانَ أنْ يُقَدِّمَ عَرْضًا.

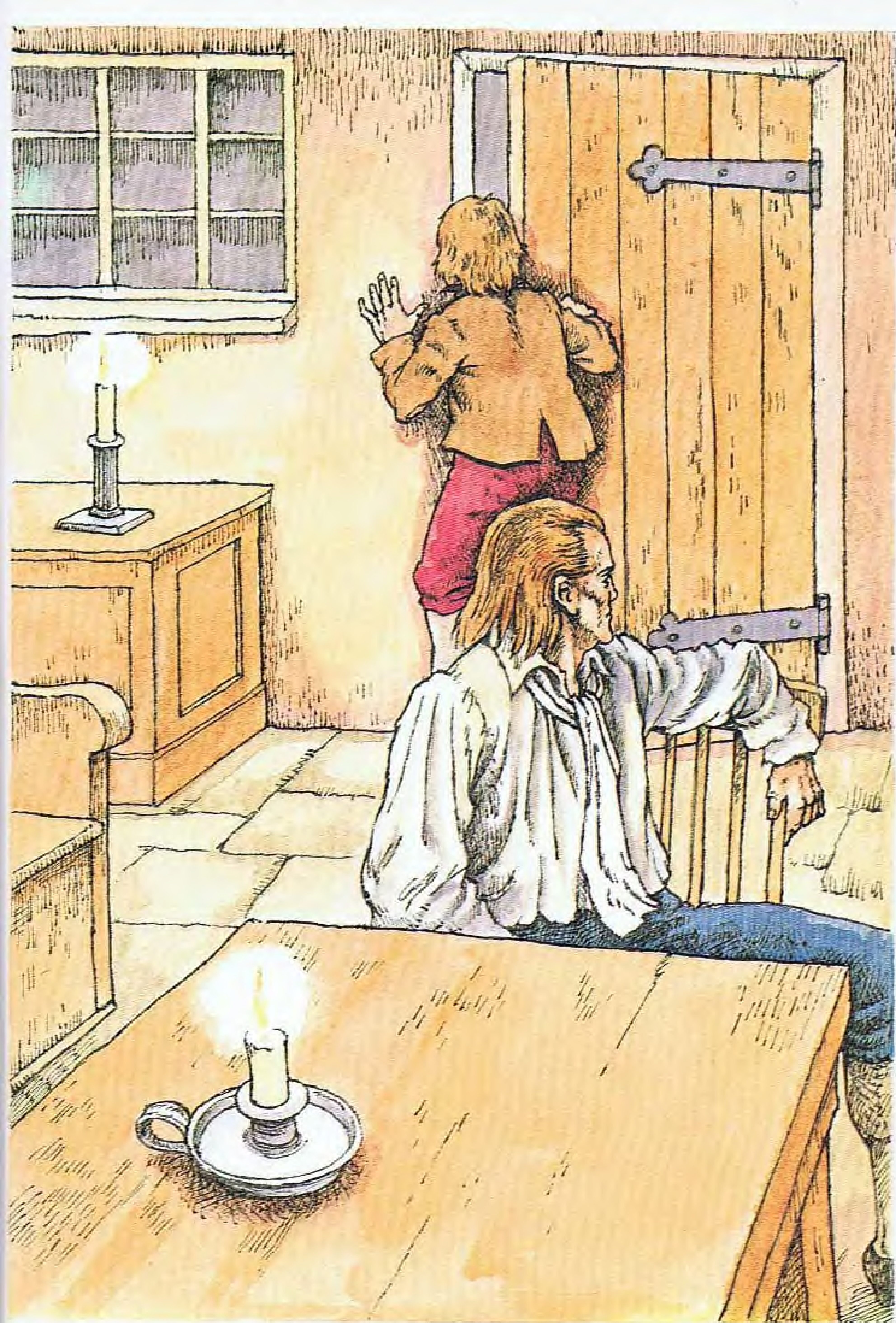
وفي اليَوْمِ التّالي لِوُصولِ الوَكيلِ ومُساعِدِهِ، يُثَبَّتُ دَبّوسٌ في شَمْعَةٍ مُشْتَعِلَةٍ على مَسافَةِ بوصَةٍ من أعْلاها. ويَكونُ عَقْدُ الإيجارِ من نَصيبِ آخِرِ رَجُلٍ يُقَدِّمُ عَرْضَهُ قَبْلَ سُقوطِ الدَّبّوسِ، أيًّا كانَ السِّعْرُ الّذي عَرَضَهُ.



وبَيْنَما كانَ الوَكيلُ ومُساعِدُهُ يَتناوَلانِ طَعامَهُما اسْتِعْدادًا لِلرَّحيلِ، وكانَ الدَّبّوسُ على وَشْكِ السُّقوطِ، دَخَلَ السَّيِّدُ ماسكيو القاعَةَ، وَسْطَ دَهْشَةِ الحاضِرينَ وسُخْطِهِمْ، واتَّجَهَ إلى إحْدى الطّاوِلاتِ.

صاحَ ألْزَقير: «غَيْرُ مُرَحَّبٍ بِكَ في هٰذا البَيْتِ، واحْذَرِ الاقْتِرابَ من طاوِلَةِ المَزادِ!» فقد كانَتِ الطّاوِلَةُ الّتي سُجِّيَ عَلَيْها جُثْمانُ ابْنِهِ جيمْس.

شَحُبَ وَجْهُ ماسكيو، وظَلَّ واقِفًا في طَرَفِ القاعَةِ. لٰكِنَّهُ شارَكَ في المَزادِ، وكَسِبَهُ. وبَيْنَما كانَ يَضَعُ صَكَّ الإيجارِ في جَيْبِهِ رَأَيْتُ مِقْبَضَ مُسَدَّسِهِ الفِضِّيَّ. وبَدا واضِحًا لنا جَميعًا أنَّ الّذي دَفَعَهُ لِلفَوْزِ بالعَقْدِ كانَ كُرْهُهُ لِلنّاسِ وحُبُّهُ لِأَذِيَّتِهِمْ، فقد دَفَعَ مَبْلَغًا باهِظًا لِأَفْقَرِ نُزُلٍ في المُقاطَعَةِ.



بَعْدَ تِلْكَ الحادِثَةِ ، أَكْثَرَ ماسكيْو مِنَ التَّرَدُّدِ على بَلْدَةٍ ساحِلِيَّةٍ قَرِيبَةٍ ، كانَتْ مَرْكَزًا لِرَئيسِ دائِرَةِ الضَّرائِبِ في المُقاطَعَةِ والفِرْقَةِ الحُكومِيَّةِ الَّتي تَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ. وقد أَوْحى ذٰلِكَ أَنّه يُخَطِّطُ لِلقِيامِ بِهُجومٍ على المُهَرِّبينَ.

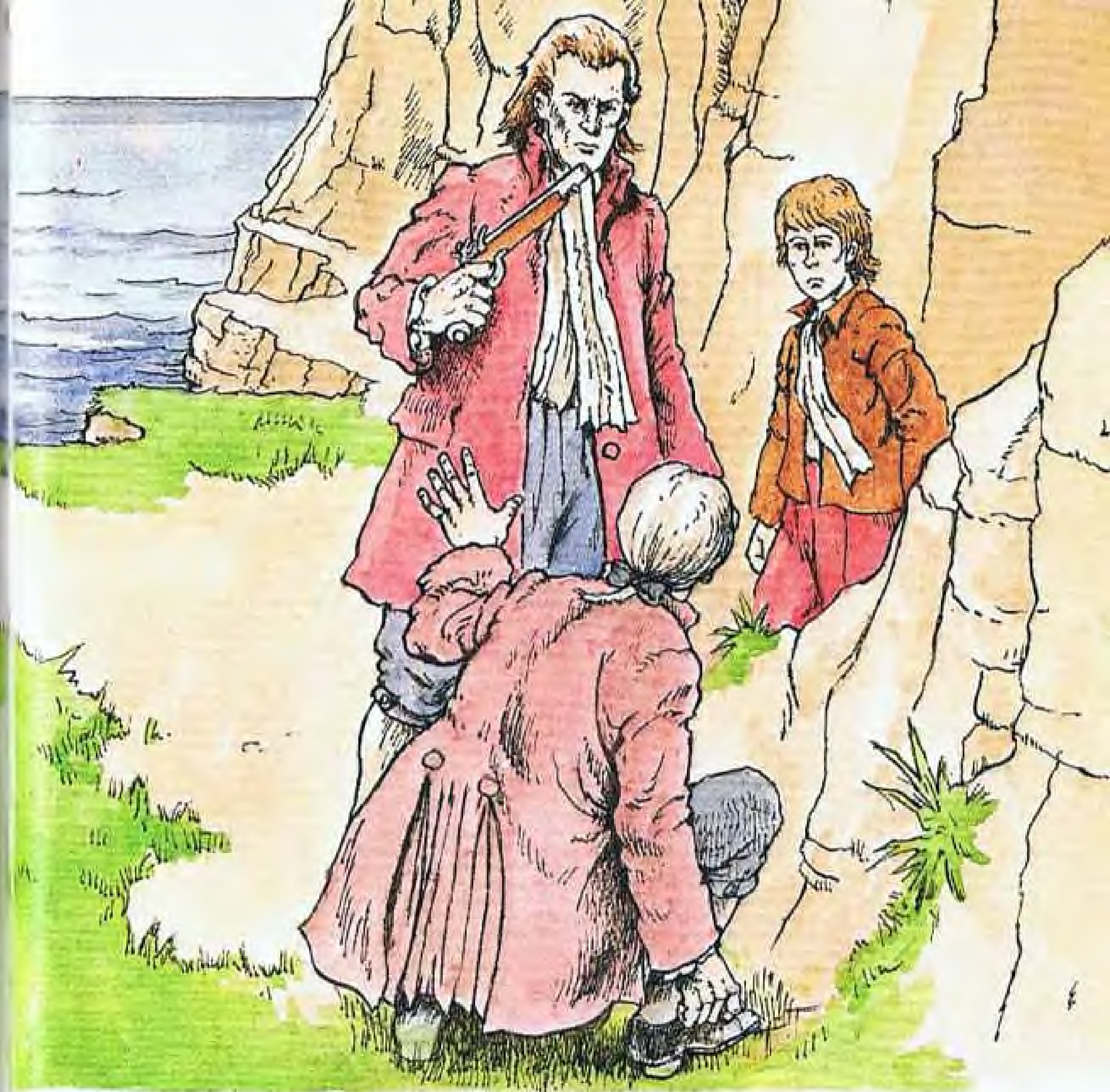
سَمِعَ أَلْزَقير بِتِلْكَ الأَخْبارِ ، وقَرَّرَ أنْ يُنْزِلَ الحُمولَةَ التّالِيَةَ مِنَ البَضائِعِ المُهَرَّبَةِ في ميناءٍ صَغيرٍ قَريبٍ ، ولَيْسَ في مونفْليت. وقد أَطْلَعَني على هٰذا الأَمْرِ ذاتَ مَساءٍ قُبَيْلَ الوَقْتِ الّذي كانَ عَلَيْنا فيه أنْ نَتْرُكَ الوايْنط. وتَراءى لي أنَّ أَحَدًا كانَ يُنْصِتُ إلى حَديثِنا ، فقد رَأَيْتُ البابَ يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً خَفيفَةً. أَسْرَعْتُ أَتَحَقَّقُ مِنَ الأَمْرِ فلم أَرَ في الظَّلامِ أَحَدًا.

وفي اليَوْمِ التّالي تَسَلَّلْتُ لِرُؤْيَةِ غْريس ماسكيْو. وحَدَّثْتُها بِمُخَطَّطاتِنا مُطْمَئِنًّا ، بَعْدَ أنْ تَعاهَدْنا على الزَّواجِ.

وَعَدَتْ غْريس ، تَعْبيرًا عن إخْلاصِها ، أنْ تَتْرُكَ في شُبّاكِها شَمْعَةً مُضاءَةً لِتَكونَ دَليلًا لِلزَّوارِقِ. فالبَحّارَةُ يَرَوْنَ القَصْرَ المُرْتَفِعَ من مَكانٍ بَعيدٍ.

حَدَثَ أنِ الْتَقَيْتُ في اليَوْمِ التّالي خالَتي ، فأَبْدَتْ مَوَدَّةً وأَعْطَتْني كِتابَ الصَّلاةِ الّذي كانَ لِأُمّي ، ووَدَّعَتْني وَداعًا أَخيرًا.

غادَرْنا أنا وأَلْزَقير القَرْيَةَ مَساءً لِمُلاقاةِ سَفينَةِ البوناڤنتشر الّتي كانَتْ سَتُفْرِغُ حُمولَتَها مِنَ البَضائِعِ المُهَرَّبَةِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ نَفْسِها. وَصَلْنا الميناءَ المَقْصودَ في الثّالِثَةِ صَباحًا ، ووَجَدْنا الرِّجالَ يَنْتَظِرونَ وقد تَوَزَّعوا جَماعاتٍ ، وخُيولُهُمْ حَوْلَهُمْ.



وبَعْدَ قليلٍ تحرَّكَتْ صَوْبَ الشّاطِئِ زوارِقُ مُحمَّلَةٌ بالبَضائِعِ من سَفينَةِ التَّهْريبِ. وَوُزِّعَتِ البَضائِعُ على أُولٰئِكَ الّذينَ كانوا في الانْتِظارِ.

وَصَلْنا إلى أَسْفَلِ المَمَرِّ الجُرْفِيِّ. وفَجْأَةً لَمَحْنا حَرَكَةً خَفيفَةً في الجَنَباتِ المُجاوِرَةِ، كَتِلْكَ الّتي يَتَسَبَّبُ بها أَرْنَبٌ أو طائِرٌ. اِنْدَفَعَ الرِّجالُ صَوْبَ مَصْدَرِ الحَرَكَةِ، فإذا بِهِمْ وَجْهًا لِوَجْهٍ أَمامَ عَدُوِّهِم اللَّدودِ ماسكيو. خَطَفوا مُسَدَّسَهُ من حِزامِهِ، وعادوا به، وأَلْقَوْهُ عِنْدَ قَدَمَيْ أَلْزَقْير.



أَعْرَبَ أَلْزَقْير عن رَغْبَتِهِ في أنْ يَتَوَلّى هو أَمْرَ الاقْتِصاصِ من ماسكيو. اِحْتَرَمَ الرِّجالُ رَغْبَتَهُ وانْطَلَقوا في ضَوْءِ الفَجْرِ الّذي كانَ قد شَرَعَ يَمُدُّ خُيوطَهُ. وتُرِكَ الرَّجُلانِ وَحْدَهُما، بَيْنَما وَقَفْتُ أنا قريبًا وقد تَوَلّاني هَلَعٌ شَديدٌ.

شَرَعَ ماسكيو يَصيحُ مُهَدِّدًا، فَأَسْكَتَهُ صَوْتُ أَلْزَقْير الحازِمُ، وهو يَقولُ: «جَلَسْتَ مُنْذُ شَهْرٍ تَحْتَ سَقْفي، ورُحْتَ تُراقِبُ احْتِراقَ الشَّمْعَةِ وسُقوطَ الدَّبّوسِ، لِتَحْصُلَ على ما يُخَوِّلُكَ طَرْدي من بَيْتي. في هٰذا الصَّباحِ سَتُشاهِدُ الشَّمْعَةَ تَحْتَرِقُ مَرَّةً أُخْرى، وعِنْدَما يَسْقُطُ الدَّبّوسُ سأَضَعُ مُسَدَّسَكَ أَنْتَ في رَأْسِكَ وأَقْتُلُكَ كَما أَقْتُلُ حَشَرَةً مُؤْذِيَةً.»

أَخَذَ فَزَعُ ماسكيو يَتَعاظَمُ وهو يُراقِبُ احْتِراقَ الشَّمْعَةِ، فَبَكى وتَوَسَّلَ. غَيْرَ أَنَّ أَلْزَقْير لم يَلْتَفِتْ لِبُكائِهِ وتَوَسُّلاتِهِ. وقالَ: «إنَّ حَياةَ الآخَرينَ الآنَ في مَوْتِكَ.»

وعِنْدَما أَوْشَكَ الدَّبّوسُ على السُّقوطِ أَطْلَقَ ماسكيو صَرْخَةَ فَزَعٍ مُخيفَةً. أَسْرَعْتُ من فَزَعي أَدْفَعُ يَدَ أَلْزَقير، فانْطَلَقَ المُسَدَّسُ في الهَواءِ. وسُرْعانَ ما جاءَ الجَوابُ من بَعيدٍ رَصاصًا كثيفًا، وبَدَأَ رِجالٌ من قُوّاتِ السُّلْطَةِ يَبْرُزونَ في أَعْلى التِّلالِ الصَّخْرِيَّةِ.

اِنْدَفَعَ أَلْزَقير بَيْنَ أَصْواتِ الرَّصاصِ المُلَعْلِعِ لِلإجْهازِ على ماسكيو. لٰكِنَّ رَصاصَةً أَصابَتْ ماسكيو فسَقَطَ قتيلاً، قَبْلَ أنْ يَصِلَ خَصْمُهُ إِلَيْهِ. وأُصِبْتُ أنا أَيْضًا في ساقي، فأَسْرَعَ إليَّ أَلْزَقير وحَمَلَني، كما يُحْمَلُ طِفْلٌ، ورَكَضَ بي صَوْبَ قاعِدَةِ الجُرُفِ الصَّخْرِيِّ مُبْتَعِدًا بي عن مَرْمى الرَّصاصِ.





ثمّ اتَّجَهَ بي بِبَسالَةٍ نادِرَةٍ صَوبَ أَعْلى الجُرُفِ ، عَبْرَ مَمَرٍّ ضَيِّقٍ مُلْتَوٍ شَديدِ الاِنْحِدارِ ، لا يَسْلُكُهُ إلّا المِعْزى . لم يَكُنِ الجُنودُ يَعْرِفونَ ذٰلِكَ المَمَرَّ ، وكانَتْ زَلَّةُ قَدَمٍ واحِدَةٌ تَعْني سُقوطَ الإنْسانِ مِنْ عَلُ لِيَتَهَشَّمَ فَوْقَ الصُّخورِ .

أَنْزَلَني أَلْزَفير في أَعْلى الجُرُفِ لِيَرْتاحَ لَحَظاتٍ . ثمّ عادَ فَحَمَلَني ومَشى بي فَوْقَ بَعْضِ الصُّخورِ المُدَبَّبَةِ الحادَّةِ ، إلى أنْ وَصَلْنا كَهْفًا يَقَعُ وَسَطَ مَقْلَعِ حِجارَةٍ قَديمٍ .

أَوْضَحَ لي أَلْزَفير أنّ عَلَينا أَنْ نَبْقى في الكَهْفِ إلى أنْ يَلْتَئِمَ جُرْحُ ساقي . وحاوَلَ أنْ يُؤَمِّنَ لي ما أَمْكَنَ مِنَ الرّاحَةِ ، لٰكِنّي عانَيْتُ من أَثَرِ الجُرْحِ حُمّى شَديدَةً قاسِيَةً .

وسُرْعانَ ما تَدَبَّرَ أَمْرَ إعْلام راتْسي بِما وَقَعَ لَنا ، فصارَ راتْسي بَعْدَ ذٰلِكَ يَتْرُكُ لَنا طَعامًا في كوخٍ مُتَهَدِّمٍ يَبْعُدُ نِصْفَ ميلٍ عَنِ الكَهْفِ. ولم يَكُنْ يَجْرُؤُ على المَجيءِ إلَيْنا ، فقد ذاعَ بَيْنَ النّاسِ أنّ دِماءَنا مَهْدورَةٌ ، وأنّ مَنْ يَقْتُلُنا يَحْصُلُ على مُكافَأَةٍ.

وتَيَقَّنّا آنَذاكَ أنّ ماسكيو كانَ هو الّذي أَنْصَتَ إلى مُحادَثَتِنا في نُزُلِ الوايْنط ، وكَشَفَ مُخَطَّطاتِنا ، وأَوْصَلَنا إلى الحالِ الّتي نَحْنُ فيها.

عِنْدَما شارَفْتُ على الشِّفاءِ رَأى أَلْزَقير أنْ نَذْهَبَ سِرًّا إلى فَرَنْسا على مَتْنِ سَفينَةِ التَّهْريبِ بوناڤَنتشَر. فإنّه على الرَّغْمِ من حالَةِ الحَرْبِ الّتي كانَتْ بَيْنَ إنْكِلْترا وفَرَنْسا كانَ المُهَرِّبونَ من كِلا البَلَدَيْنِ كالإخوَةِ.

مَضى أَلْزَقير لِتَرْتيبِ أَمْرِ الرِّحْلَةِ. وهَبَّتْ في تِلْكَ الأَثْناءِ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ. وكانَ الكَهْفُ في نِهايَةِ مَمَرٍّ مُواجِهٍ لِلصُّخورِ ، وهٰكَذا راحَتِ الرِّياحُ تَعْوي والأَمْواجُ تَلْطُمُ الصُّخورَ في أَسْفَلِ التِّلالِ باعِثَةً ضَجيجًا مُرْعِبًا.

أَمْسَكْتُ كِتابَ الصَّلاةِ الّذي وَرِثْتُهُ عن أُمّي ، لٰكِنّي لم أَجِدْ فيه ما يَبْعَثُ الطُّمَأْنينَةَ في قَلْبي. ثمّ سَمِعْتُ صَوْتَ خُطُواتٍ تَقْتَرِبُ منّي ، فخَشيتُ أنْ يَكونَ أَمْرُ الكَهْفِ قدِ انْكَشَفَ ، فأَسْرَعْتُ أَرْفَعُ مُسَدَّسي. وما كانَ أَعْظَمَ اطْمِئْناني حينَ رَأَيْتُ أنّ القادِمَ هو صَديقُنا راتْسي.

كانَتْ ثِيابُ راتْسي مُبَلَّلَةً ، وكانَ يَرْتَجِفُ بَرْدًا. فأَشْعَلَ نارًا ثمّ حَدَّثَني بِما عِنْدَهُ. قالَ إنّه لم يَعُدْ يَجْرُؤُ على الاقْتِرابِ مِنَ الكوخِ حَيْثُ كانَ يَتْرُكُ لنا الطَّعامَ ، فلقد رُصِدَتْ مُكافَأَةٌ لِمَنْ يُدْلي بِمَعْلوماتٍ تُفْضي إلى اعْتِقالي واعْتِقالِ أَلْزَقير. وقالَ أَيْضًا إنّ بَيْنَ المَسْؤولينَ مَنْ يَشُكُّ بِأَمْرِهِ ويَعْتَقِدُ أنه على اتِّصالٍ بِنا.





أَعْلَمْتُهُ بِمُخَطَّطِ أَلْزَقير ، ووافَقَنا الرَّأْيَ ، لَكِنْ أَحْزَنَهُ أَنْ يَنْتَهِيَ بِنا الأَمْرُ مُطارَدَين كالمُجْرِمينَ. وقد حَدَّثَني عن جَنازَةِ ماسكيو ، وامْتَدَحَ الشَّجاعَةَ الَّتي أَبْدَتْها ابْنَتُهُ غريس الَّتي رَفَضَتْ أَنْ تَظُنَّ سوءًا بي وبأَلْزَقير.

وبَيْنَما كانَ يُحَدِّثُني لَمَحَتْ عَيْنُهُ وَرَقَةً سَقَطَتْ من عُلَيْبَةِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ الَّتي لا تُفارِقُ عُنُقي. اِلْتَقَطَ الوَرَقَةَ وقرأَها ، ثمّ عَلَّقَ عَلَيْها قائِلًا أَنْ لَيْسَ لِلكاتِبِ مَعْرِفَةٌ بِالمَزامير ، فإنّ تَرْقيمَها مُخالِفٌ لِلتَّرْقيمِ الأَصْليِّ.

دَفَعَني الفُضولُ ، بَعْدَ أنْ تركَني راتسي ، إلى أَنْ أَنْظُرَ في مَزاميرِ كِتابِ الصَّلاةِ ، فرَأَيْتُ أَنّه على حَقٍّ.

خَطَرَ لي فَجْأَةً أنّ في الكَلِماتِ رُموزًا تَدُلُّ على مَوْضِعِ الكَنْز. فعَدَدْتُ الكَلِماتِ في كُلِّ بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ ، وَفْقَ التَّرْقيمِ المُعْطى ، ووَجَدْتُ أنّي عَثَرْتُ على الرُّموزِ الآتِيَةِ : ثَمانينَ – قَدَم – عُمْق – بِئْر – شَمالًا.



غَمَرَني الفرحُ في بِدايَةِ الأَمْرِ ، فقد كُنْتُ واثِقًا أنّي وَجَدْتُ مِفْتاحَ اللُّغْزِ الّذي يَقودُ إلى ماسَةِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ. لٰكِنْ ، بَعْدَ شَيْءٍ مِنَ التَّمَعُّنِ ، وجَدْتُ أنّي لا أَفْهَمُ مَعْنًى مُترابِطًا لِتِلْكَ الكَلِماتِ. وبَقيتُ حائِرًا إلى أنْ غَلَبَني النَّوْمُ.

اِسْتَيْقَظْتُ فرَأَيْتُ أَلْزَفيرَ قد عادَ ، وكانَ مُنْهَمِكًا في إعْدادِ وَجْبَةِ طَعامٍ. أَخْبَرْتُهُ بِما اكْتَشَفْتُ ورُحْنا مَعًا نُحاوِلُ الرَّبْطَ بَيْنَ كَلِماتِ الرَّمْزِ.

فَجْأَةً أَشعَّتْ عَيْنا أَلْزَفير وقالَ : «إنّ البِئْرَ الّتي يُشارُ إلَيْها لا بُدَّ أنْ تكونَ بِئْرَ قَلْعَةِ كارِسبْروك الّتي اشْتَهَرَتْ بِعُمْقِها.»

ثمّ قالَ : «بِئْرٌ وشَمالًا تَعْنِيانِ أنّ علَيْنا أَنْ نَبْدَأَ حَيْثُ تُشيرُ إبْرَةُ البوصلَةِ إلى الشَّمالِ ثمّ نَنْزِلَ في البِئْرِ إلى عُمْقِ ثَمانينَ قَدَمًا ، وعِنْدَ تِلْكَ النُّقْطَةِ نَجِدُ الكَنْزَ.»

قَرَّرَ أَلْزَقير ، بَعْدَ حلِّ لُغزِ الكَنْزِ ، أنْ نتوجَّهَ بسفينةِ البوناڤنْتشر إلى جزيرةِ وايْت مُتنكِّرَيْنِ ، خشْيَةَ أنْ يتعرَّفَ إلَيْنا جُنْدُ الملِكِ .

قَبْلَ بَدْءِ الرِّحْلَةِ بيَوْمَيْنِ أَسْرَرْتُ إلى أَلْزَقير أنَّ فيَّ رَغْبَةً عارِمَةً لِوداعِ غْريس ماسكيْو. كُنْتُ واثِقًا أنّي إذا تَنَكَّرْتُ في زِيِّ صَبِيِّ نجّار ، واتَّبَعْتُ مَمرّاتٍ غَيْرَ مَطْروقَةٍ ، فإنّي سأَبْلُغُ مونفْليت دونَ أنْ يَتعرَّضَ لي أَحَدٌ .

أَجابَ أَلْزَقير : «أَنْتَ وَلَدٌ أَحْمَقُ . لكِنَّ لِلشَّبابِ حاجاتٍ ورَغَباتٍ . لقد كانَ لي دَوْرٌ في حالَةِ التَّشرُّدِ الّتي تُعاني منها ، ولا أُريدُ أنْ أَزيدَ من أَحْزانِكَ . فاذْهَبْ ، لكِنْ إنْ أُطْلِقَتْ عَلَيْكَ النّارُ فلا تَلُمْ إلّا نَفْسَكَ . لَطالَما تَساءَلْتُ كَيْفَ يُنْجِبُ رَجُلٌ ضالِعٌ في الشُّرورِ مِثْلَ تِلْكَ الابْنَةِ الصّادِقَةِ الوَديعَةِ . إنْ لم تَعُدْ حتّى مُنْتَصَفِ لَيْلِ غدٍ ، سأَعْتَبِرُ أنّكَ وَقَعْتَ في المَتاعِبِ وأَسْعى لِلبَحْثِ عَنْكَ .»

أَمْسَكْتُ يَدَهُ وشَدَدْتُ عَلَيْها شاكِرًا . وعِنْدَ الغَسَقِ رافَقَني في المَرْحَلَةِ الأولى مِنَ الطَّريقِ ، ثمّ انْطَلَقْتُ وَحْدي .



وَصَلْتُ القَصْرَ المُنْعَزِلَ وقرعْتُ البابَ ، فلم تَعْرِفْني غريس لِلوَهْلَةِ الأولى. ثمّ قفزَتْ إليَّ حينَ عرَفَتْني ، وبَكتْ سُرورًا. أدركْتُ عِنْدَ ذاكَ أنّا لم نَعُدْ طِفْلَيْنِ.

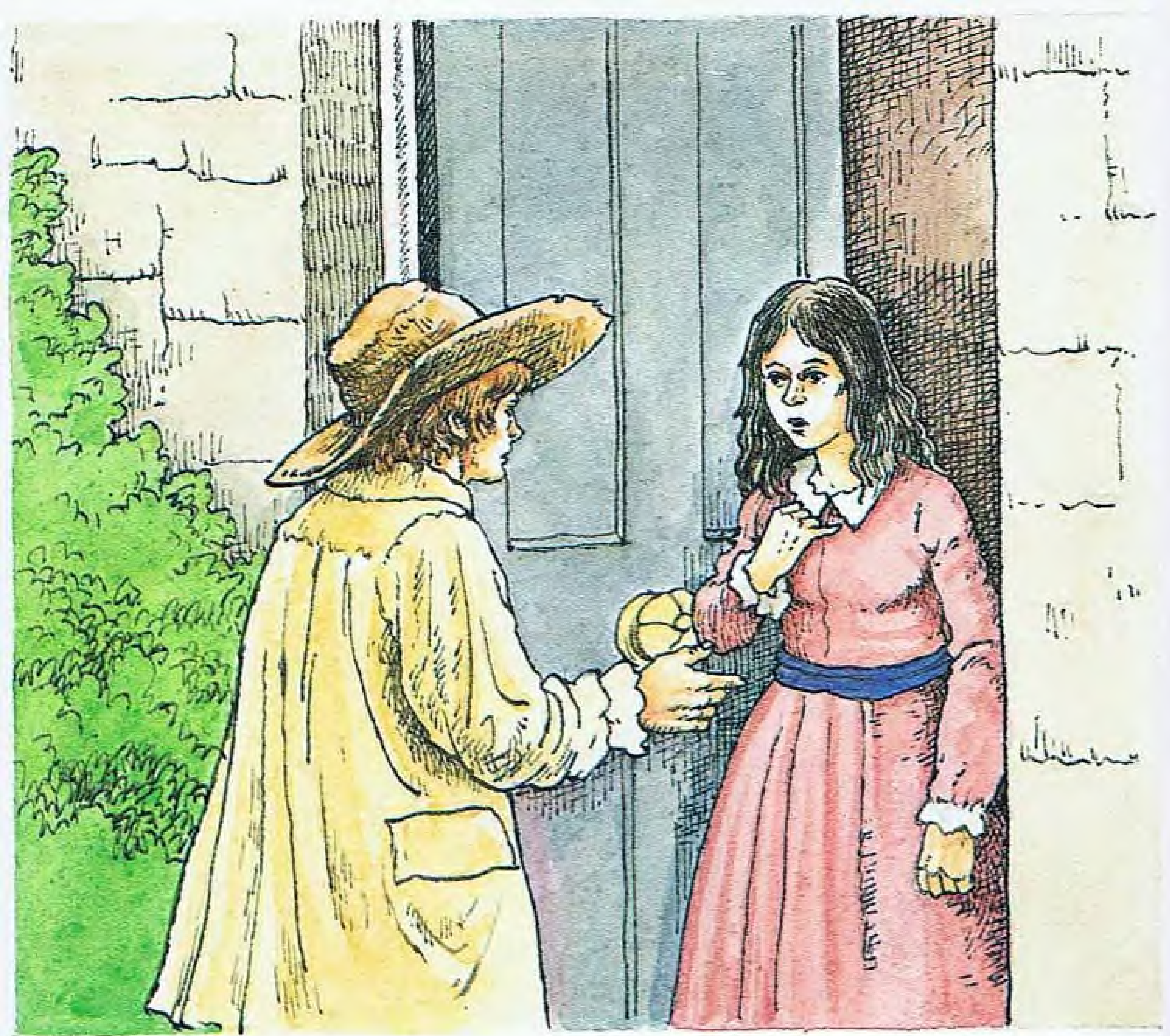
مَشَيْنا إلى مَكانٍ مُنْزَوٍ في الحَديقَةِ ، فاستَرَحْتُ قَليلًا. ثمّ جاءَتْني بِشَيْءٍ مِنَ الطَّعامِ. تَحَدَّثْنا كثيرًا وأَطْلَعْتُها على مُخَطَّطاتي كُلِّها. وجَدَّدَتْ وَعْدَها أنْ تَتْرُكَ شَمْعَةً مُضاءَةً في شُبّاكِها طَوالَ اللّيالي ، حَتّى تَهْدِيَ طَريقي حينَ أعودُ مِنَ البَحْرِ. وقالَتْ إنَّ تِلْكَ الشَّمْعَةَ لنْ تَنطَفِئَ إلّا بِمَوْتِها ، وإنّ في اشْتِعالِها إشارَةً لي أنّها لا تَزالُ في انْتِظاري.

على أنّها حينَ سَمِعَتْ حِكايَةَ الكَنْزِ أَصابَها اضْطِرابٌ ، وقالَتْ : «إذا وَجَدْتَ الماسَةَ ، فلا تأْخُذْها لِنَفْسِكَ ، بَلِ افْعَلْ بِها ما كانَ صاحِبُها الشِّرِّيرُ قد نَوى ، في آخِرِ حَياتِهِ ، أن يَفْعَلَ بِها. وإلّا حَلَّتْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ.»

حَمَلَتْ أَوْهامُها الابْتِسامَ إلى شَفَتَيَّ ، فقد كُنْتُ أَبْحَثُ عَنِ الثَّراءِ لِأَكونَ جَديرًا بِالزَّواجِ بها. ثمّ افترَقْنا وعُدْتُ إلى أَلْزَقْير قَبْلَ المَوْعِدِ المَضْروبِ بِنِصْفِ ساعَةٍ.

في اللَّيْلَةِ التالِيَةِ اقْتَرَبَتْ سَفينَةُ البوناڤنتشر مِنَ الشّاطِئِ القَريبِ من مَخْبَئِنا ، وأَرْسَلَتْ زَوْرَقًا لِأَخْذِنا. وعِنْدَ انْبِلاجِ الصَّباحِ رَسَوْنا على شاطِئِ جَزيرَةِ وايْت. ثمّ اتَّجَهْنا صَوْبَ نُزُلٍ بَلْدَةِ نيو پورْت مُتَنَكِّرَيْنِ في ثِيابِ سائِقي العَرَباتِ.

كانَ صاحِبُ النُّزُلِ صَديقًا لِأَلْزَقْير لازَمَهُ سَنَواتٍ ، ومَعَ ذلِكَ فإنّه لم يَعْرِفْهُ أوّلَ الأَمْرِ. أَقَمْنا في النُّزُلِ مُدَّةً كانَ أَلْزَقْير في أَثْنائِها يَسْتَطْلِعُ البَلْدَةَ ويُفَكِّرُ في طَريقَةٍ يَصِلُ بِها إلى القَلْعَةِ وبِئْرِها.



كانَتِ القَلْعَةُ في ذلِكَ الوقْتِ تُسْتَعْمَلُ سِجْنًا لِلأَسْرى الفرَنْسِيِّينَ. وقد قابَلَ ألْزَفير بَعْضَ ضُبّاطِ السِّجْنِ الّذين كانوا يَتَرَدَّدونَ على النُّزُلِ، وتَمَكَّنَ بِواسِطَتِهِمْ مِنَ الدُّخولِ إلى ساحَةِ القَلْعَةِ. ثُمَّ تَعَرَّفَ إلى الرَّجُلِ المَسْؤولِ عن حِراسَةِ البِئْرِ، وأَقْنَعَهُ بِالتَّعاوُنِ مَعَنا، لٰكِنْ بَعْدَ أنْ أَطْلَعَهُ على السِّرِّ وَوَعَدَهُ أنْ يَكونَ شَريكًا لَنا في الكَنْزِ.

وهٰكَذا دَخَلْنا في اليَوْمِ التّالي القَلْعَةَ مُتَنَكِّرَيْنِ، هٰذِهِ المَرَّةَ، في زِيِّ بَنّاءٍ وَصَبِيِّهِ استُخْدِما لِتَرْقيعِ جانِبٍ مُتَشَقِّقٍ من جِدارِ البِئْرِ.



أُخِذْنا عَبْرَ قاعَةٍ واسِعَةٍ كانَ السُّجَناءُ يَعيشونَ فيها ، ثُمّ إلى ساحَةٍ تَقَعُ فيها سَقيفَةُ البِئْرِ.

كانَ البِئْرُ مُحاطًا بِجِدارٍ عُلُوُّهُ قَدَمانِ ، وكانَ مُزَوَّدًا بِدَلْوٍ مُتَّصِلٍ بِدولابٍ يُشَغِّلُهُ حِمارٌ.

أَخْرَجَ أَلْزَقير من جَيْبِهِ خَيْطَ فادِنٍ ، ورَأى أنْ يُسْقِطَ الخَيْطَ في البِئْرِ إلى عُمْقِ ثَمانينَ قَدَمًا ، وهي المَسافَةُ الّتي يُشيرُ إلَيْها اللُّغْزُ ، ثمّ أنْ يَنْزِلَ هو في الدَّلْوِ لِيَتَفَحَّصَ جَوانِبَ البِئْرِ.

لٰكِنّي تَوَسَّلْتُ إلَيْهِ أنْ أَقومَ أنا بِالمُهِمَّةِ لا هو. فقد كُنْتُ أَتوقُ لِلبَحْثِ عَنِ الكَنْزِ بِنَفْسي ، كما كُنْتُ أَخْشى أنْ أَبْقى وَحْدي مَعَ ذٰلِكَ الحارِسِ اللَّئيمِ النَّظَراتِ.

وافَقَ أَلْزَقير ، فنَزَلْتُ في الدَّلْوِ الضَّخْمِ ، وقَبَعْتُ داخِلَهُ حتّى بَلَغْتُ نُزولاً نُقْطَةَ الثَّمانينَ قَدَمًا. ثمّ نَظَرْتُ حَوْلي نَظَراتٍ مُدَقِّقَةً فلم أَجِدْ شَيْئًا يَسْتَلْفِتُ النَّظَرَ.

نادَيْتُ أَلْزَقير ، وصِحْتُ : «أَأَنْتَ واثِقٌ أنّكَ أَنْزَلْتَ خَيْطَ الفادِنِ ثَمانينَ قَدَمًا بِالضَّبْطِ ؟»

تَذَكَّرَ حارِسُ البِئْرِ عِنْدَئِذٍ أنّ الأَرْضَ كانَتْ قد فُرِشَتْ بِالتُّرابِ أَقْدامًا ، فأُنْزِلْتُ مَسافَةَ سِتِّ أَقْدامٍ أُخْرى. ونَظَرْتُ حَوْلي ثانِيَةً نَظْرَةً مُدَقِّقَةً.

أَخيرًا وَقَعَ نَظَري على آجُرَّةٍ نُقِشَ عَلَيْها حَرْفٌ يَرْمُزُ إلى الموهون. أَزَلْتُ المِلاطَ من حَوْلِ الآجُرَّةِ وسَحَبْتُها ، فَوَجَدْتُ خَلْفَها كيسًا جِلْدِيًّا صَغيرًا يَحْتَوي على جِسْمٍ صُلْبٍ.



أَشَرْتُ إلى أَلْزَقْير فراحَ الدَّلْوُ يرْتَفِعُ بي. لَكِنَّ الحارِسَ أَوْقَفَ السَّحْبَ قُبَيْلَ وُصولي إلى فُوَّهَةِ البِئْرِ ، وطَلَبَ أنْ تُسَلَّمَ الجوْهَرَةُ إلَيْهِ. وبَدَتْ في عَيْنَيْهِ نَظَراتٌ مُريعَةٌ وهو يُحَدِّقُ في الجوْهَرَةِ الّتي كانَتْ ، بَعْدَ أنْ أَخْرَجْتُها من كيسِها ، تُشِعُّ في ضَوْءِ الشَّمْسِ.

رَفَضْتُ طَلَبَ الحارِسِ. فالْتَفَتَ إلى أَلْزَقْير يُساوِمُهُ على تَقاسُمِ الجوْهَرَةِ مَعَهُ ، وحِرْماني من نَصيبي. وعِنْدَما أَخْفَقَ في مُحاوَلَتِهِ سَحَبَ مُسَدَّسَهُ وصاحَ قائِلًا إنَّه يَعْرِفُ أنّنا مَطْلوبانِ ، وهَدَّدَ بإفْشاءِ أَمْرِنا إلى السُّلُطاتِ ما لَمْ يَحْصُلْ على الجوْهَرَةِ.

أَطْلَقَ الحارِسُ على أَلْزَقْير رَصاصَةً أَخْطَأَتْهُ وأَصابَتْ سِلْسِلَةَ البِئْرِ. ثمّ انْقَضَّ على عُنُقِ صاحِبي ، ونَشِبَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ صِراعٌ مُسْتَميتٌ.

تَمَكَّنْتُ في هٰذِهِ الأَثْناءِ مِنَ الخُروجِ مِنَ البِئْرِ ، ورَأَيْتُ أَلْزَقْير يَدْفَعُ عَنْهُ خَصْمَهُ بِقُوَّةٍ خارِقَةٍ. ورَأَيْتُ الحارِسَ يَفْقِدُ تَوازُنَهُ ويَتَعَثَّرُ فَوْقَ فُوَّهَةِ البِئْرِ. ثمّ رَأَيْتُ أَلْزَقْير يَقْفِزُ ويُمْسِكُ خَصْمَهُ من حِزامِهِ مُحاوِلًا إنْقاذَهُ. لَكِنَّ مُحاوَلَتَهُ ذَهَبَتْ عَبَثًا ، فقدِ انْقَطَعَ الحِزامُ ، وسَقَطَ الحارِسُ في أَعْماقِ البِئْرِ سُقوطًا مُريعًا.

نَجَوْنا أنا وألْزَفير ، ولٰكنّي تذكَّرْتُ لَعْنَةَ الجَوْهَرَةِ الّتي حذَّرَتْني غريس منها . لقد وقعَ الحارسُ ضحيّةَ تلْكَ اللّعْنَةِ وأُزْهِقَتْ روحُهُ ، فمَنْ يكونُ بعْدَهُ ؟ توسَّلْتُ إلى ألْزَفير أنْ نَرْميَ الجَوْهَرَةَ في البئْرِ فنأْمنَ شرَّها .

لٰكنَّهُ رفض رجائي ، وطلَبَ منّي أنْ أُقْلِعَ عن أوْهامي ، وقالَ : «أَعْطِني الجَوْهَرَةَ . إنّها كَنْزُكَ ، ولَنْ أَمَسَّهُ أو أَمَسَّ جُزْءًا منه . لٰكنّا خاطَرْنا بحَياتنا من أجْلِها فلن أَدَعَكَ تُضيِّعُها سُدًى .»

ثمّ انْتزَعْنا من حِزامِ الحارِسِ مِفْتاحَ سَقيفَةِ البئْرِ ، وغادَرْنا القَلْعَةَ بأقْصى سُرْعَةٍ . وزَعَمْنا عِنْدَ البَوّابَةِ أنّ حارِسَ البئْرِ لم يَجِدْ من ضَرورَةٍ لمُرافَقَتِنا إلى الخارِجِ .

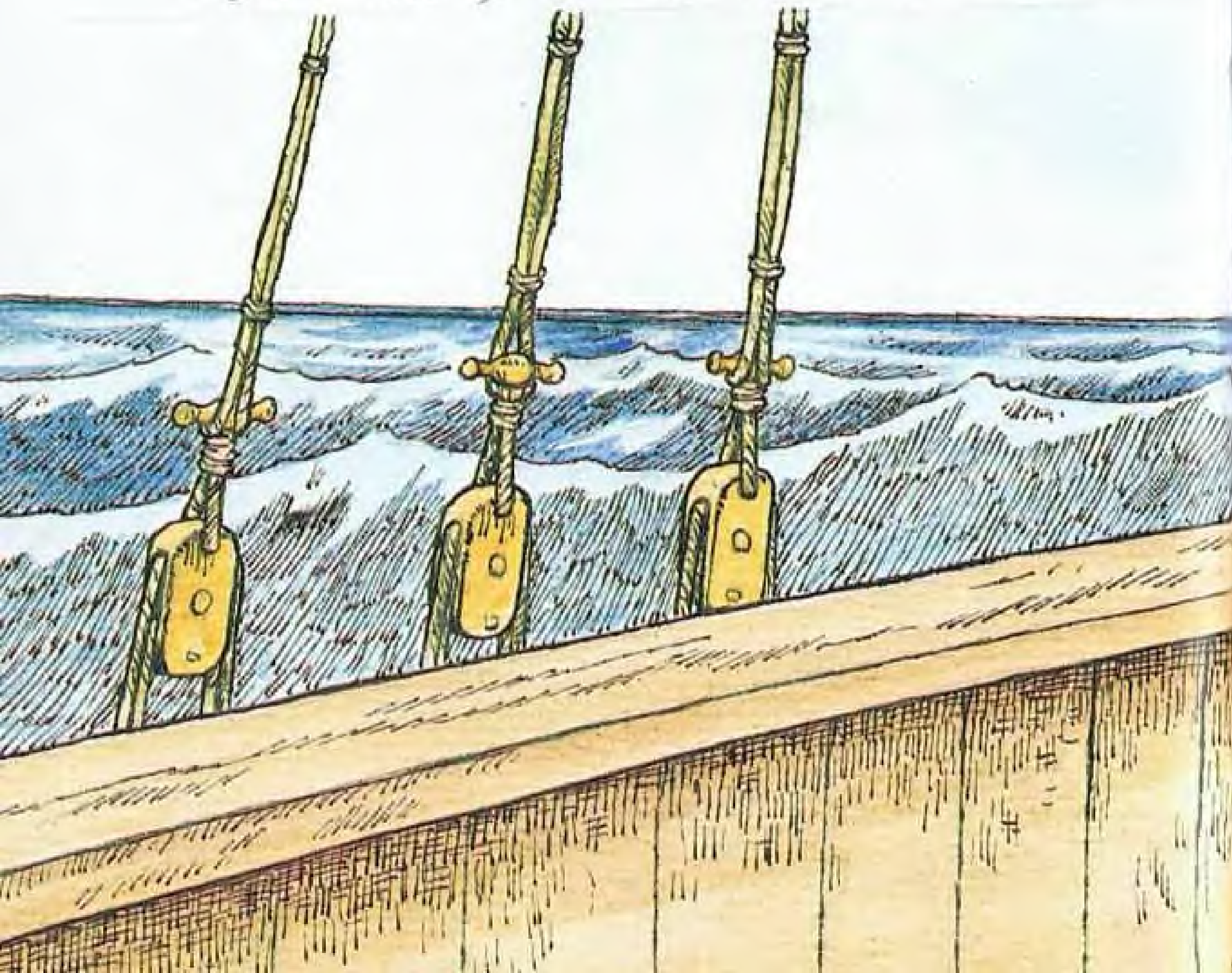


عُدْنا إلى النُّزُلِ ، وأبْحَرْنا في اللّيْلَةِ التّالِيَةِ إلى هولَنْدا حيْثُ لِلجَواهِرِ سوقٌ رائِجَةٌ .

أمّا أنا فقد سَحَرَني جمالُ الجَوْهَرَةِ ، وسَيْطَرَتْ على تَفْكيري أَحْلامُ الثَّراءِ الّذي سيُمَكِّنُني يوْمًا مِنَ الزَّواجِ من غريس .

وقد أقْلَقَتْ تصرُّفاتي ألْزَفير ، وشَرَعَ بِدَوْرِهِ يُرَدِّدُ ما كانَتْ غريس قد حذَّرَتْنا منه . قالَ :

«إنّها جَوْهَرَتُكَ . لٰكنْ لو كُنْتُ مكانَكَ وأَثْرَيْتُ ، وأُتيحَ لي أنْ أَعودَ إلى مونفْليت ، فلن أَسْتَعْمِلَ المالَ كُلَّهُ في مآربي الخاصَّةِ ، بلْ أُعيدُ بِناءَ بُيوتِ الفُقَراءِ ، كما نَوى ذو اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ ، في آخرِ حياتِهِ ، أنْ يَفْعَلَ .»



قَصَدْنا في هولَنْدا بَيْتَ تاجِرِ مُجَوْهَراتٍ عَجوزٍ. رافَقَنا إلى عِلِّيَّةٍ في بَيْتِهِ حَيْثُ شَرَعَ يَفْحَصُ الماسَةَ. وبَيْنَما كانَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ سَأَلَني عَنِ اسْمي. فَأَجَبْتُهُ مُتَسَرِّعًا: «إِسْمي جون تِرِنْشَرْد من قَرْيَةِ مونفْليت الإِنْكِليزِيَّةِ.»

راحَ الرَّجُلُ يَتَفَحَّصُ الماسَةَ بِتَأَنٍّ شَديدٍ خِلالَ مُكَبِّرٍ، ويَزِنُها بَيْنَ يَدَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ مُتَجَهِّمًا، وقالَ إِنَّها ماسَةٌ مُزَيَّفَةٌ لَيْسَ لها إِلّا قيمَةٌ زَهيدَةٌ، وعَرَضَ لِقاءَها ثَمَنًا بَخْسًا.

أَحسَّ أَلْزَقيرِ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ مَريرَةٍ ورَمى، في ثَوْرَةِ غَضَبِهِ، الجَوْهَرَةَ مِنَ الشُّبّاكِ. أَطْلَقَ التّاجِرُ صَيْحَةً حادَّةً، لٰكِنّا غادَرْنا البَيْتَ من فَوْرِنا، وقد غَشَّتِ المَرارَةُ عُيونَنا.

حاوَلَ أَلْزَقيرِ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ يَبْعَثَ السَّلْوى في نَفْسي، فقالَ: «كُنْتَ تَخْشى أَنْ تكونَ الجَوْهَرَةُ مَلْعونَةً، وها قد تَخَلَّصْتَ منها، ولَعَلَّ في ذٰلِكَ خَيْرًا لَكَ.»

وحَدَثَ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَنّي أَدْرَكْتُ فَجْأَةً أَنَّ التّاجِرَ العَجوزَ مُخادِعٌ، وفَهِمْتُ مَعْنى الصَّرْخَةِ الّتي أَطْلَقَها. لقد كانَتِ الجَوْهَرَةُ حَقيقِيَّةً وذاتَ قيمَةٍ عَظيمَةٍ.

عُدْتُ أنا وأَلْزَقيرِ إلى بَيْتِ التّاجِرِ، وتَسَلَّقْنا سورَ البَيْتِ وشَرَعْنا نَبْحَثُ في الحَديقَةِ. لٰكِنَّ الجَوْهَرَةَ كانَتْ قدِ اخْتَفَتْ، ووَجَدْنا آثارَ أَقْدامٍ تُثْبِتُ أَنَّ البَحْثَ الّذي لا بُدَّ أَنَّ العَجوزَ قامَ بِهِ من قَبْلِنا لم يَذْهَبْ سُدًى. تَسَلَّقْتُ شُرْفَةَ الغُرْفَةِ العُلْوِيَّةِ، فرَأَيْتُ العَجوزَ وهو مُنْحَنٍ على ضَوْءِ شَمْعَةٍ فَوْقَ كَنْزي.

تَمَلَّكَني هِياجٌ شَديدٌ فانْدَفَعْتُ نَحْوَ الرَّجُلِ ، واندَفَعَ ألْزَقير وَرائي يُحاوِلُ أنْ يَرُدَّني. لكِنَّ الضَّجَّةَ الّتي أَثَرْناها نَبَّهَتْ خَدَمَ العَجوزِ ، فاقْتَحَموا الغُرْفَةَ وتَكاثَروا عَلَيْنا ، وأَمْسَكونا وأَسْلَموا إلى السُّلُطاتِ.





إنَّ الذِّكْرياتِ الّتي تلَتْ تِلْكَ الحادِثَةَ مَريرَةٌ ، وسآتي على ذِكْرِها بِما أَمْكَنَ من إيْجازٍ.

لقد قُدِّمْنا لِلمُحاكَمَةِ ، وادَّعى التّاجِرُ أنَّ الجَوْهَرَةَ مِلْكُهُ ، وأنّنا كُنّا زُرْناهُ في ذلِكَ اليَوْمِ بِحُجَّةِ أنّنا نُريدُ بَيْعَهُ جَوْهَرَةً لَيْسَتْ في حقيقَتِها إلّا قِطْعَةَ زُجاجٍ . وزَعَمَ أنَّ تِلْكَ الزِّيارَةَ الصَّباحِيَّةَ لم تكُنْ إلّا لِاسْتِكْشافِ المَنْزِلِ ووَضْعِ خُطَّةٍ لِسَرِقَتِه.

حاوَلْنا أنْ نُدافِعَ عن أَنْفُسِنا ، لٰكِنَّ الحُكْمَ صَدَرَ بإدانَتِنا ، وحُكِمَ عَلَيْنا بِالأَشْغالِ الشّاقَّةِ المُؤَبَّدَةِ.

وقد مارَسْنا الأَشْغالَ الشّاقَّةَ فِعْلًا مُدَّةَ سَنَواتٍ. لٰكِنْ زادَ في آلامِنا أنَّهم وَسَموا وَجْنَتَنا اليُسْرى بِوَسْمِ المُجْرِمينَ.

وكانَ الوَسْمُ يَرْمُزُ إلى الحَرْفِ الأَوَّلِ مِنَ السِّجْنِ الّذي زُجِجْنا فيهِ. واتَّفَقَ أنْ كانَ ذٰلِكَ الحَرْفُ هو نَفْسُهُ الّذي يَرْمُزُ إلى أُسْرَةِ الموهون ، فدَخَلَ في رَوْعي أنَّ الموهون قد نالوا مِنّي.

عِنْدَما بَلَغْتُ السّادِسَةَ والعِشْرينَ من عُمْري ، وكانَ قد مَضى على وُجودِنا في الأَسْرِ عَشْرُ سَنَواتٍ ، عَلِمْتُ أنَّ جَماعَتَنا سَتُنْقَلُ ، في جُمْلَةِ جَماعاتٍ مِنَ المَحْكومِ عَلَيْهِم ، إلى جَزيرَةِ جاوا ، لِلعَمَلِ في مَزارِعِ السُّكَّرِ.

وكانَ أنْ تَبَخَّرَتْ أَحْلامي بالعَوْدَةِ إلى إنْكِلْترا تَبَخُّرًا تامًّا ، ورُحْتُ أَتَخَيَّلُ نَفْسي أَقْضي أَيّامي تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ المُحْرِقَةِ ، وتَحْتَ رَحْمَةِ سَوْطِ آمِرِ العَبيدِ.

وامْتَلأَ قَلْبي مَرارَةً وأنا أُراقِبُ أَلْزَفير يَمْشي أَمامي مُجْهَدًا ، وقدِ انْحَنى كَتِفاهُ وابْيَضَّ شَعْرُهُ. ومَرَّ بِخَيالي ذٰلِكَ الرَّجُلُ الخارِقُ الّذي حَمَلَني مُنْذُ سَنَواتٍ ، وصَعِدَ بي المَمَرَّ المُلْتَوِيَ الضَّيِّقَ الشَّديدَ الانْحِدارِ.

ومَلأَتْ قَلْبي المَرارَةُ أَيْضًا عِنْدَما تَذَكَّرْتُ كَلِماتِ غِريس : «إذا وَجَدْتَ الماسَةَ ، فلا تَأْخُذْها لِنَفْسِكَ ، بَلِ افْعَلْ بِها ما كانَ صاحِبُها الشِّرّيرُ قد نَوى ، في آخِرِ حَياتِهِ ، أنْ يَفْعَلَ بِها. وإلّا ، حَلَّتْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ.»

بَعْدَ وَقْتٍ قَصيرٍ نَقَلَتْنا قَوارِبُ إلى السَّفينَةِ الّتي كانَتْ سَتُقِلُّنا إلى جَزيرَةِ جاوا. ثمّ أُنْزِلْنا إلى عَنْبَرِ السَّفينَةِ ورُبِطْنا في مَجْموعاتٍ مِنْ سِتَّةِ أَشْخاصٍ. وكانَ الجوُّ في عَنْبَرِ السَّفينَةِ مُعْتِمًا والرّائِحَةُ كَريهَةً. ولم نَكُنْ نَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنَ الرّاحَةِ إلّا عِنْدَما يُفْتَحُ البابُ العُلْوِيُّ مَرَّتَيْنِ في اليَوْمِ.

وكانَ قد مَرَّ نَحْوُ أُسْبوعٍ على وُجودِنا في البَحْرِ عِنْدَما هَبَّتْ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ مُخيفَةٌ. وراحَتِ الأَمْواجُ الهائِلَةُ تَضْرِبُ السَّفينَةَ وتَقْذِفُها كَريشَةٍ في مَهَبِّ الرّيحِ.



كُنْتُ أنا والزَّقير وَحْدَنا ذَوِيْ خِبْرَةٍ في البَحْرِ. فأَدْرَكْنا، دونَ سائِرِ المَحْكومِ عَلَيْهِمْ، حَقيقَةَ الخَطَرِ الّذي يُحيقُ بنا. ولاحَظْنا أنّ السَّفينَةَ كانَتْ مُنْذُ ساعاتٍ تَنْجَرِفُ مَعَ الرّيحِ دونَ أَيِّ سَيْطَرَةٍ عَلَيْها.

فَجْأَةً انْفَتَحَتْ بَوّابَةُ السَّقْفِ، ورَمى السَّجّانُ إلَيْنا مِفْتاحًا، وصاحَ: «خُذوهُ! وَلْيَنْجُ كُلٌّ مِنْكُمْ بِنَفْسِهِ. حَماكُمُ اللهُ!»

وأَدْرَكَ الجَميعُ أَنّ البَحّارَةَ يَهْجُرونَ السَّفينَةَ. أَمْسَكَ الزَّقيرِ المِفْتاحَ وفَكَّ السَّلاسِلَ. ثمّ أَسْرَعْنا نَصْعَدُ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ.

كانَ الوَقْتُ غَسَقًا. وبَدا جَوُّ ذلِكَ المَساءِ الشَّتَوِيِّ مُكْفَهِرًّا عاصِفًا، لكِنّا تَبَيَّنّا أنّا نَتَّجِهُ صَوْبَ اليابِسَةِ. وكانَ ذلِكَ يَعْني أنّ السَّفينَةَ، مَدْفوعَةً بالرِّياحِ العاتِيَةِ والأَمْواجِ الهائِلَةِ، سَتَتَحَطَّمُ عِنْدَ ارْتِطامِها باليابِسَةِ شَرَّ تَحَطُّمٍ.

أَخَذْنا، أنا والزَّقير، نُراقِبُ. وفَجْأَةً انْتَفَضْنا مَعًا، فقد بَدَتْ مَعالِمُ الشّاطِئِ أَليفَةً، وأَدْرَكْنا أنّنا مُقْبِلونَ على الاصْطِدامِ بِخَليجِ قَرْيَتِنا مونفليت.





صاحَ أَلْزَقير في السُّجناءِ الآخَرينَ قائِلًا إنّه يَعْرِفُ المكانَ مَعْرِفةً تامّةً. ولَيْسَ أَمامَهُمْ إلّا فُرْصَةٌ وَحيدَةٌ لِلنَّجاةِ. إنّ عَلَيْهِمْ ، عِنْدَ وُصولِ السَّفينةِ إلى الشّاطِئِ ، أنْ يَرْموا بِأَنْفُسِهِمْ في الماءِ ، ويَشُقّوا طَريقَهُمْ بَيْنَ الأَمْواجِ والتَّيّاراتِ البَحْرِيَّةِ ، إلى أنْ يَصِلوا إلى اليابِسَةِ. وقالَ إنّ النُّزولَ الآنَ في قَوارِبِ النَّجاةِ هو الهَلاكُ بِعَيْنِه.

لم يُصَدِّقِ الكثيرونَ مِنَ السُّجناءِ كَلامَ أَلْزَقير ، وكانَ أنِ ابْتَلَعَهُمُ البَحْرُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ المُريعَةِ.

ومَعَ اقْترابِنا مِنَ الشّاطِئِ سَمِعْتُ صَوْتَ أَلْزَقير يَصيحُ وَسْطَ العاصِفَةِ :
«أُنْظُرْ ! فَوْقَ التَّلَّةِ ضَوْءٌ ! إنّها شَمْعَةُ ابْنَةِ ماسكيو.»



عَشْرُ سَنَواتٍ حافَظَتْ فيها غْريسُ على وَعْدِها ، لٰكِنْ أَيُقَدَّرُ لنا أنْ نَصِلَ الشّاطِئَ سالِمينَ؟

اِزْدَدْنا اقْتِرابًا مِنَ الشّاطِئِ فتعاظَمَ الهَديرُ. وأَخيرًا اصْطَدَمَتِ السَّفينَةُ بِأَرْضِ الشّاطِئِ ، ولن تَلْبَثَ الأَمْواجُ والرِّياحُ والصُّخورُ أنْ تُمَزِّقَها تَمْزيقًا.

رَأَيْنا قَرَوِيّي مونفليت قد أَقْبَلوا ، كَعادَتِهِمْ ، لإِنْقاذِ مَنْ يَقْدِرونَ على إنْقاذِهِمْ ، ولِأَخْذِ ما تَجْرُفُهُ الأَمْواجُ من حُطامِ السَّفينَةِ.

جاءَتِ اللَّحْظَةُ الّتي عَلَيْنا أنْ نَبْذُلَ فيها ما أُوتينا من قُوَّةٍ لإنْقاذِ أَنْفُسِنا.

صاحَ أَلْزَقير: «عَلَيْنا أنْ نَنْدَفِعَ بَعْدَ ارْتِدادِ المَوْجَةِ الكَبيرَةِ التّالِيَةِ. اِقْفِزوا عِنْدَما أَقولُ لكُمْ، وحاوِلوا أنْ تَعْلوا أَقْصى ما تَسْتَطيعونَ فَوْقَ زَبَدِ المَوْجِ. سيُلْقونَ إلَيْنا طَرَفَ حَبْلٍ لِنَتَمَسَّكَ به. الآنَ، إلى اللِّقاءِ يا جون، وَلْيَكُنِ اللهُ مَعَنا جَميعًا!»



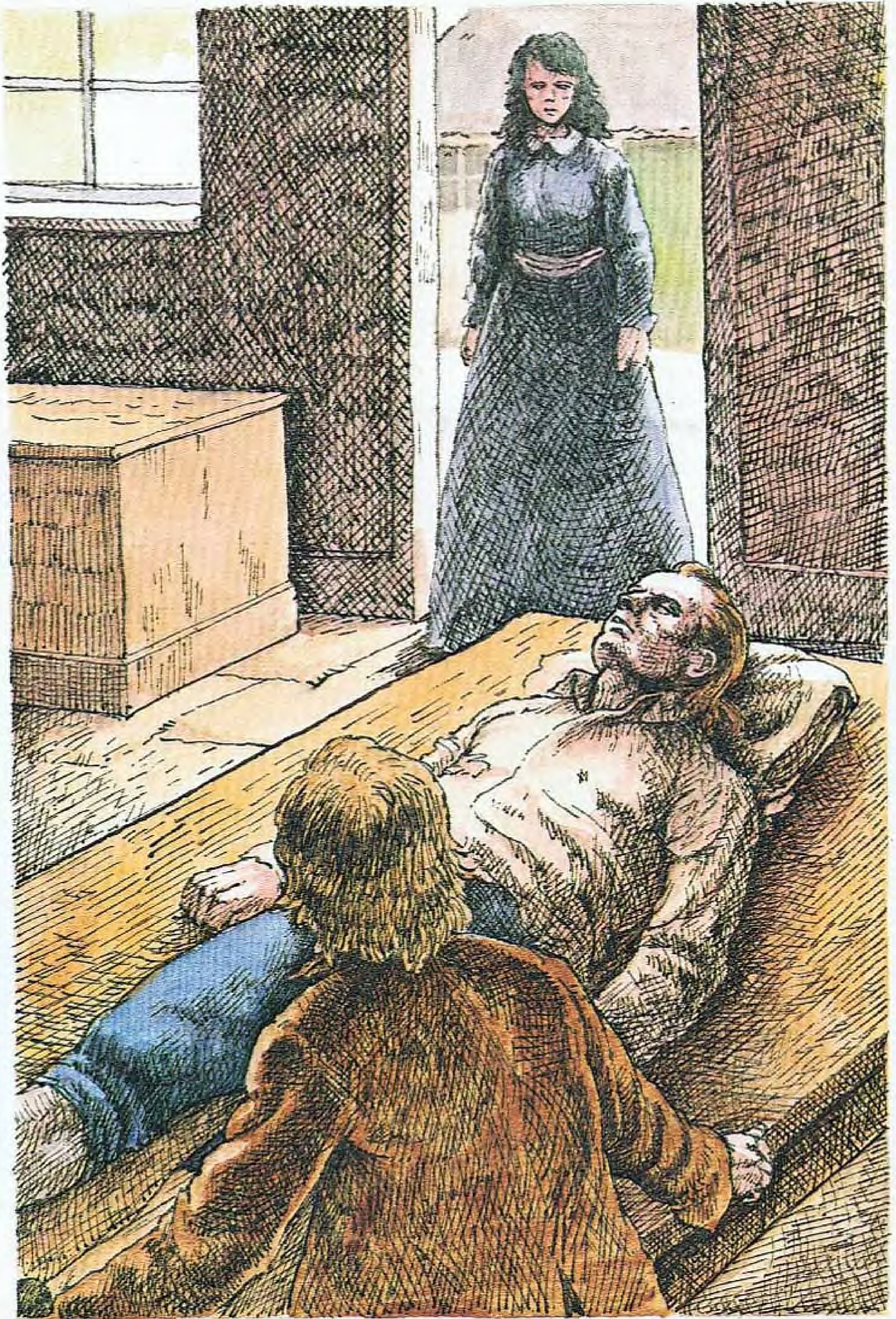
وَقَعْتُ في قَفْزَتي على يَدَيَّ ورِجْلَيَّ ، لٰكِنّي وَجَدْتُ الماءَ أَقَلَّ مِنَ المِتْرِ عُمْقًا. جاهَدْتُ جِهادًا مُسْتَميتًا لِأَقْتَرِبَ ما أمْكَنَني مِنَ الشّاطِئِ ، قَبْلَ وُصولِ المَوْجَةِ التّالِيَةِ. كَذٰلِكَ لَمَحْتُ سِلْسِلَةً مِنَ الرِّجالِ يَنْدَفِعونَ مَعًا ناحِيَةَ الشّاطِئِ ، مُحاوِلينَ ، بِأَقْصى ما يَسْتَطيعونَ من قُوَّةٍ ، الوُصولَ إلى طَرَفِ حَبْلٍ أُلْقِيَ في البَحْرِ لِمُساعَدَتِنا.

أَمْسَكَ أَلْزَقير الحَبْلَ بِيَدِهِ اليُسْرى ، ومَدَّ يَدَهُ اليُمْنى إلَيَّ. وتَلامَسَتْ أَصابِعُنا ، لٰكِنْ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَفَعَني تَيّارٌ مائِيٌّ إلى الوَراءِ مَسافَةَ ثَلاثينَ مِتْرًا ، ووَجَدْتُ نَفْسي بَيْنَ حُطامِ السَّفينَةِ المُتَلاطِمِ.

عِنْدَئِذٍ قامَ أَلْزَقير بِعَمَلٍ مُذْهِلٍ ، فقد أَفْلَتَ حَبْلَ الخَلاصِ الّذي كانَ يُمْسِكُ بِهِ ، وخَوَّضَ البَحْرَ عائِدًا إلَيَّ ، وأَمْسَكَني من يَدي وشَدَّني. وأَعادَتْ إلَيَّ قُوَّتُهُ وشَجاعَتُهُ الأَمَلَ ، بَعْدَ أنْ كِدْتُ أَتَجَمَّدُ بَرْدًا ، وأَسْقُطُ إعْياءً فَريسَةً لِلأَمْواجِ.

سَمِعْنا المَوْجَةَ التّالِيَةَ مُقْبِلَةً عَلَيْنا فسَعَيْنا لِلوُصولِ إلى الحَبْلِ بما بَقِيَ لنا من طاقَةٍ. وتَمَكَّنْتُ أنا مِنَ الإمْساكِ به بَعْدَ أنْ دَفَعَني أَلْزَقير إلَيْهِ دَفْعَةً خارِقَةً مُسْتَميتَةً. لٰكِنَّ فُرْصَتَهُ هو في النَّجاةِ كانَتْ قَد ضاعَتْ ، وأَعْطى حَياتَهُ إنْقاذًا لِحَياتي.

أَذْهَلَ القَرَوِيّينَ أنْ يَتَمَكَّنَ حتّى شَخْصٌ واحِدٌ مِنَ النَّجاةِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ الرَّهيبَةِ. لٰكِنَّ الّذي أَذْهَلَهُمْ أكْثَرَ أنْ يَكونَ النّاجي الوَحيدُ هو أنا جون تْرِنْشَرْد ، ابْنَ قَرْيَتِهِمْ.



عامَلَني أَهْلُ القَرْيَةِ بِعَطْفٍ ومَحَبَّةٍ ، وقَدَّموا لي سَريرًا في الوايْنَط . وفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي عُدْتُ إلى الشّاطِئِ الّذي كانَ مُغَطًّى بِحُطامِ السَّفينَةِ . وهُناكَ رَأَيْتُ جَسَدَ صَديقي أَلْزَقيرِ وقد أَعادَتْهُ الأَمْواجُ .

حَمَلَ القَرَوِيّونَ جُثْمانَ أَلْزَقيرِ إلى نُزُلِ الوايْنَط ، وسَجَّوْهُ على الطّاوِلَةِ عَيْنِها الّتي كانَ قد سُجِّيَ عَلَيْها جُثْمانُ ابْنِهِ جيمْس .

لم يَكُنْ عِنْدي مِنْ مَكانٍ أَذْهَبُ إلَيْهِ ، فبَقيتُ في النُّزُلِ أَبْكي صَديقي . وبَيْنَما كُنْتُ أُطْرِقُ بِرَأْسي حَزينًا سَمِعْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ خَفيفَةٍ آتِيَةٍ من خارِجِ القاعَةِ . رَفَعْتُ رَأْسي فرَأَيْتُ أَمامي شابَّةً حَسْناءَ شاحِبَةَ الوَجْهِ .

قالَتْ : «جون ، أَلَيْسَ عِنْدَكَ ما تَقولُهُ لي؟ أَنَسيتَني؟ أَلَيْسَ لي أنْ أُشارِكَكَ أَحْزانَكَ؟»

أَمْسَكْتُ يَدَها ورَفَعْتُها إلى شَفَتَيَّ أُقَبِّلُها ، وقُلْتُ :

«أَيَّتُها الغالِيَةُ ، ما نَسيتُكِ . أَنْتِ أَحَبُّ النّاسِ إلى قَلْبي . لٰكِنْ لَيْسَ لي أنْ أُحَدِّثَكِ عَنِ الحُبِّ ، فَنَحْنُ لَسْنا كما كُنّا صَغيرَيْنِ حالِمَيْنِ . أَنْتِ اليَوْمَ سَيِّدَةٌ نَبيلَةٌ وأنا مُتَشَرِّدٌ بائِسٌ .»

ثمّ حَدَّثْتُها كَيْفَ أَنّي قَضَيْتُ في السِّجْنِ عَشْرَ سَنَواتٍ ، وأَرَيْتُها آثارَ الحَديدِ في مِعْصَمَيَّ والوَسْمَ على وَجْنَتي .

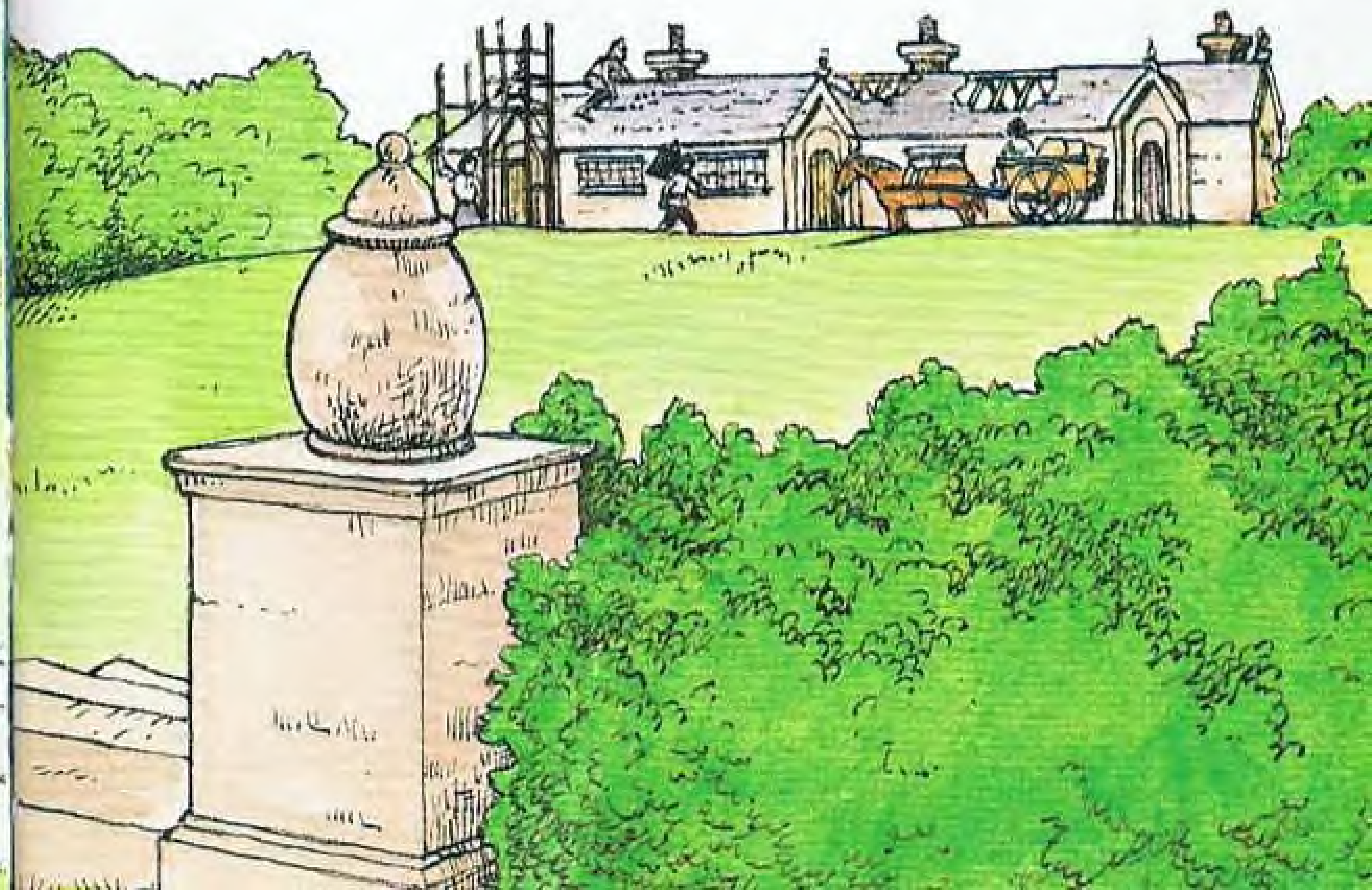
أَجابَتْ غْريس أنّها لا تكْتَرِثُ لِلثَّرْوَةِ ، وأنّها تَعْرِفُ أَنّي بَريءٌ . أمّا عَنِ الوَسْمِ فإنّها تَعْتَبِرُ ذٰلِكَ عَلامَةً تَرَكَها الموهون في وَجْهي لِأَنّي لم أَصْدَعْ بِأَمْرِهِمْ . قالَتْ ذٰلِكَ ومَضَتْ .

وجاءَني الكاهِنُ غْلني يُعَزّيني ، وحَمَلَ إليَّ أنْباءً أَظْهَرَتْ أنّ قَدَري لم يَكُنْ في القَتامَةِ الَّتي كُنْتُ أَتَصوَّرُها. فلقد كانَتْ غْريس كَلَّفَتْ مُحاميًا لإظْهارِ بَراءَتي وبَراءَةِ أَلْزَقْير. وقد نَجَحَ المُحامي في مَسْعاهُ ، فلم أَعُدْ هارِبًا من وَجْهِ العَدالَةِ.

يُضافُ إلى ذٰلِكَ أنّ رِسالَةً كانَتْ قد وَصَلَتْ من مُحامي تاجِرِ المُجَوْهَراتِ الّذي تَسَبَّبَ في إدْخالِنا السِّجْنَ.

فقد باتَ التّاجِرُ ، بَعْدَ سَنَتَيْنِ من إدانَتِنا والحُكْمِ عَلَيْنا ، مُقْتَنِعًا أنّ الجَوْهَرَةَ لم تَجْلُبْ له إلّا سُوءَ الطّالِعِ والمَرَضَ. فقَرَّرَ ، لِذٰلِكَ أنْ يُعَوِّضَ عَلَيْنا. وأَوْصى لي بِأَمْوالِهِ كُلِّها ، ولم يَعِشْ طَويلًا بَعْدَ تِلْكَ الوَصِيَّةِ.

كانَ اللَّيْلُ قدِ انْتَصَفَ عِنْدَما تَوَقَّفَ الكاهِنُ غْلني عَنِ الكَلامِ. وتَرَكَني أَبْكي صَديقي ، لٰكِنَّهُ بَعَثَ فيَّ الأَمَلَ بِحَياةٍ جَديدَةٍ.



سارَتْ أُموري كُلُّها بَعْدَ ذٰلِكَ سَيْرًا حَسَنًا. تَزَوَّجْتُ غْريس ورُزِقْنا صَبِيَّيْنِ وبِنْتًا. وأَسْمَيْتُ أَحَدَ الصَّبِيَّيْنِ أَلْزَقْير إحْياءً لِذِكْرى صَديقي الّذي ماتَ من أَجْلي. وسَعَيْتُ دائِمًا لإحْقاقِ الحَقِّ ، واسْتَعْمَلْتُ المالَ ، وفْقَ ما تَمَنّى الكولونيل موهون في آخِرِ حَياتِهِ. فأَعَدْتُ بِناءَ بُيوتِ الفُقَراءِ ، وساعَدْتُ المُحْتاجينَ ، ورَمَّمْتُ القَصْرَ.



يَرْقُدُ الآنَ راتْسي والكاهِنُ غلْني إلى جِوارِ قَبْرِ ألْزَفير الّذي نُقِشَ على شاهِدِهِ ما يَأْتي: «الجودُ بِالرّوحِ أَسْمى غايَةِ الجودِ.»

ولقد أُتيحَ لي بَعْدَ ذٰلِكَ أنْ أَحْمِلَ الحَبْلَ أنا أَيْضًا، وأَنْزِلَ في بَعْضِ اللَّيالي العاصِفَةِ، لأُساعِدَ في إنْقاذِ إنْسانٍ يُجاهِدُ لِلوُصولِ إلى الشّاطِئِ. لٰكِنّي لم أَرَ قَطُّ إنْسانًا يَنْجو في لَيْلَةٍ رَهيبَةٍ كَتِلْكَ اللَّيْلَةِ الّتي قَدَّمَ فيها أَلْزَفير حَياتَهُ لِيُنْقِذَني.





جون ميْد فوكْنِر

وُلِدَ جون ميْد فوكْنِر في الثّامِنِ مِنْ أَيّارَ (مايو) سَنَةَ ١٨٥٨ في قَرْيَةِ «مانِنْغفورْد بروس» بِمُقاطَعَةِ «وِلْتشاير» في جَنوبِ إِنْكِلْترا. هُوَ الابْنُ الأَكْبَرُ لِلقِسّيسِ توماس أَلِكْسندر فوكْنِر والسَّيِّدَةِ إليزابث غريس ميْد. لا يُعْرَفُ عَنْ طُفولَتِهِ المُبَكِّرَةِ غَيْرُ أَنَّهُ قَضى قِسْمًا مِنْها في مِنْطَقَةِ «دورْسِت» وهي المِنْطَقَةُ الّتي اسْتَوْحى مِنْها، فيما بَعْدُ، الإطارَ المَكانِيَّ لِرِوايَتِهِ «مونفْليت». أُرْسِلَ، في الثّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، إلى مَدْرَسَةٍ في مَدينَةِ «مارلبورو»، وانْتَقَلَ مِنْ هُناكَ إلى جامِعَةِ «أوكسفورد» حَيْثُ دَرَسَ التّاريخَ.

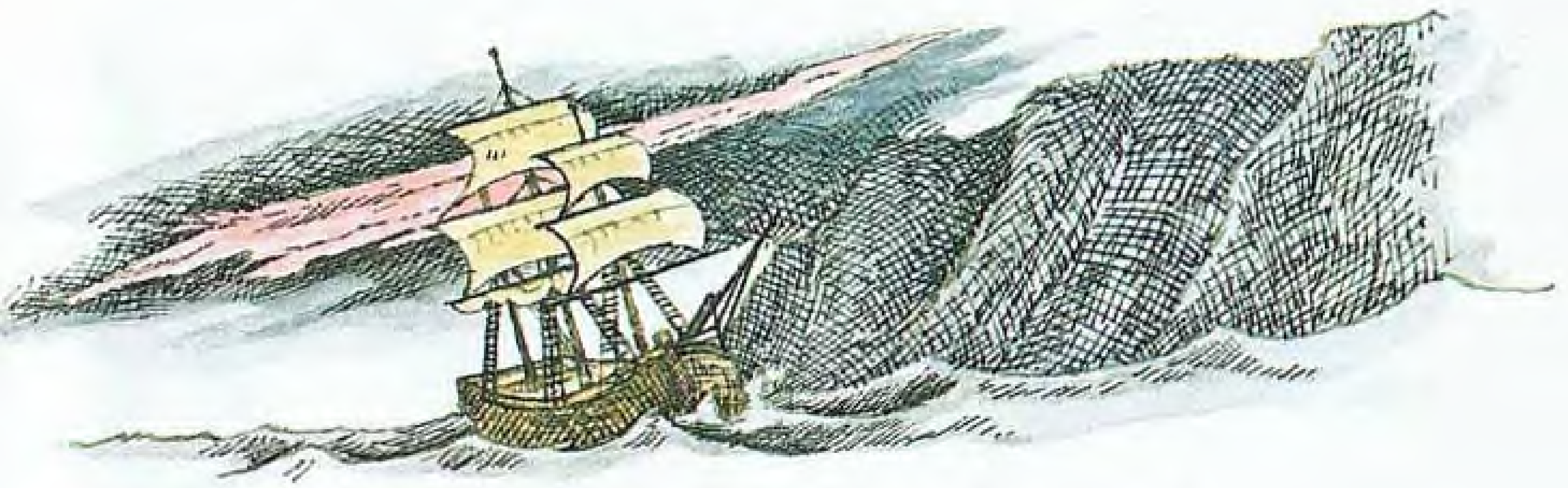
عِنْدَما غادَرَ «أوكسفورد» ذَهَبَ إلى «نيوكاسِل» وعَمِلَ مُدَرِّسًا خاصًّا لِأَوْلادِ أَنْدْرو نوبل، وهُوَ مِنْ أَصْحابِ شَرِكَةٍ هامَّةٍ لِصِناعَةِ الأَسْلِحَةِ. ثُمَّ أَصْبَحَ السِّكرتيرَ الخاصَّ لِلسَّيِّدِ نوبل، وبَعْدَ ذٰلِكَ أَمينًا عامًّا لِمَجْلِسِ إدارَةِ الشَّرِكَةِ. تَزَوَّجَ، سَنَةَ ١٨٩٩، مِنْ حَفيدَةِ مُؤَسِّسِ الشَّرِكَةِ، ولَمّا تُوُفِّيَ أَنْدْرو نوبل أَصْبَحَ فوكْنِر رَئيسًا لِمَجْلِسِ الإدارَةِ. وقَدْ تَطَلَّبَ مِنْهُ مَرْكَزُهُ هٰذا السَّفَرَ مِرارًا إلى خارِجِ بِلادِهِ، وخُصوصًا في الفَتْرَةِ الّتي سَبَقَتْ نُشوبَ الحَرْبِ العالَمِيَّةِ الأولى، وحازَ عِدَّةَ أَوْسِمَةٍ مِنْ بُلْدانٍ مُخْتَلِفَةٍ.

هُناكَ جانِبٌ آخَرُ في حَياةِ فوكْنِر غَيْرُ عالَمِ الأَعْمالِ: فَلَقَدْ كانَ شَديدَ الاهْتِمامِ بِالكُتُبِ والمَكْتَباتِ، ونالَ وِسامًا مِنَ البابا لِمُساعَدَتِهِ مَكْتَبَةَ الڤاتيكانِ. وبَعْدَ انْتِقالِهِ إلى

مَدينَةِ «دورْهام» عُيِّنَ أَمينًا فَخْرِيًّا لِمَكْتَبَتِها العامَّةِ. كَتَبَ فوكْنِر في التّاريخِ وفي وَصْفِ مُقاطَعاتِ ومُدُنِ جَنوبِ إِنْكِلْترا، ونَظَمَ الشِّعْرَ، وأَلَّفَ الرِّوايات.

نُشِرَتْ أُولى رِواياتِهِ «**الكَمانُ الضّائِعُ**» سَنَةَ **١٨٩٥**، وهِيَ قِصَّةُ أَشْباحٍ مُرْعِبَةٌ؛ وظَهَرَتْ سَنَةَ **١٩٠٣** رِوايَةُ «**المِعْطَفِ الغامِضِ**»، وهِيَ قِصَّةٌ بوليسِيَّةٌ تَعْكِسُ اهْتِمامَ فوكْنِر بِالمُوسيقى وعِلْمِ الأَنْسابِ. وبَيْنَ هٰذَيْنِ الكِتابَيْنِ، أَلَّفَ «**مونفليت**»، وهِيَ أَشْهَرُ رِواياتِهِ وأَوْسَعُها شَعْبِيَّةً.

بَعْدَ أَنْ تَقاعَدَ فوكْنِر مِنَ العَمَلِ في صِناعَةِ الأَسْلِحَةِ ظَلَّ في مَدينَةِ «دورْهام» إِلى أَنْ تُوُفِّيَ سَنَةَ **١٩٣٢** عَنْ أَرْبَعَةٍ وسَبْعينَ عامًا.



كتب الفراشة - القصص العالمية

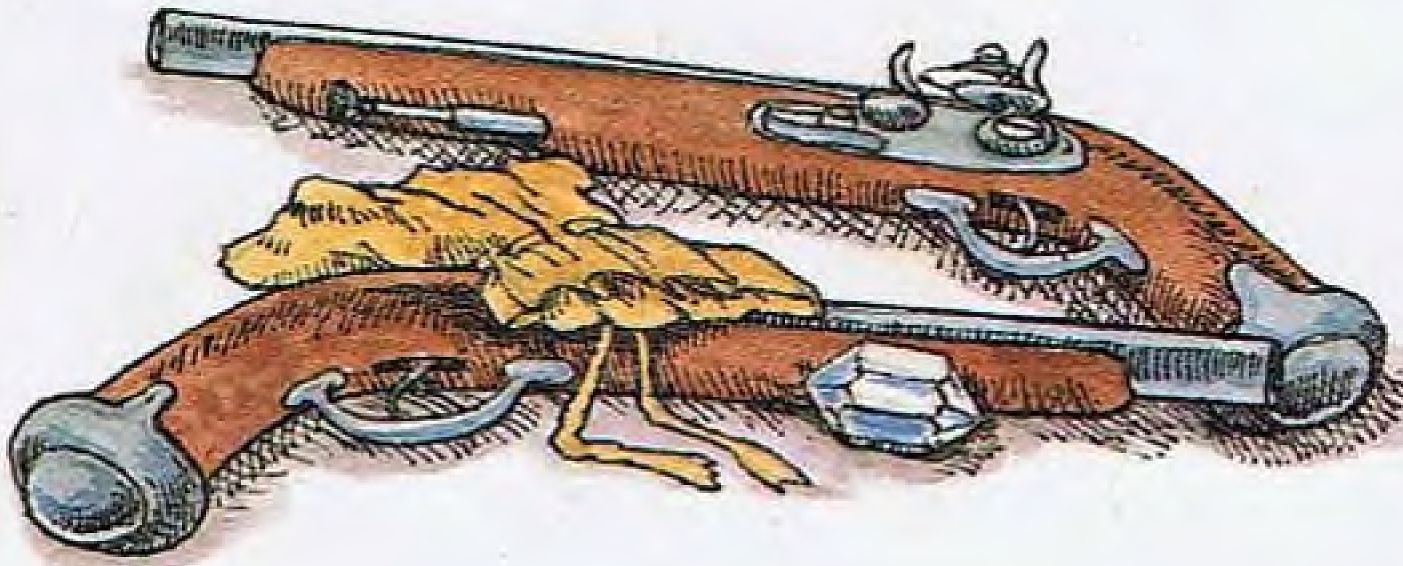
١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليڤر تْويست
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْڤيل
٨ - قِصَّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير



كتب الفراشة

القصص العالميّة ٩. مونفليت

اِخْتارَت **مكتبة لبنان ناشرون** أَرْوَعَ القِصص العالَمِيّة، ونَقَلَتها إلى العَربيَّة مُبسَّطة، مُراعِيَةً الأَمانَةَ في النَّقل والمُحافَظة على جَزالة الأُسْلوب العَربيّ وبَلاغته، مَعَ تَشكيل كامِل وضَبْط دَقيق. وقد أَشْرَفَ على هٰذه السِّلسلة خُبَراء دائِرَتَي النَّشْر والمَعاجم في مكتبة لبنان ناشرون حتّى نُوفِّر للقارئ العربيّ إنْتاجًا فكريًّا مُتفوِّقًا مَظْهرًا ومَضْمونًا.



مَكتَبة لبنَان نَاشِرون

